الاعترافات للقديس أوغسطين والمنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي ـ دراسة مقارنة

د. ليلى رامي*

سلم البحث في ١٤٤٢/٦/٢٢هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٢/٧/٢٥هـ

ملخص البحث:

يعتبر كتاب "الاعترافات" للقديس أوغسطين (ق٤ م)، وكتاب "المنقذ من الضلال" للإمام أبي حامد الغزالي (ق ٥هـ)، وثيقتين تاريخيتين لسيرتيهما الذاتية تكشفان لنا مختصر رحلتيهما الفكرية في البحث عن الحقيقة. فكليهما شهد تطوراً فكرياً بدأ بإشباع العقل والمادة ثم انتقل إلى البحث عن ما يشبع الروح على الرغم من انتمائهما لديانتين مختلفتين. لقد حاولنا من خلال هذا البحث أن نعقد مقارنة علمية بينهما من خلال كتابيهما، وذلك لرصد التطور الفكري لديهما. ولقد اعتمدت الدراسة المنهج الاستقرائي لتتبع مراحل تطور مسارهما الفكري؛ كما اعتمدت المنهج النقدي التحليلي عند المقارنة بينهما.

ومن بين نتائج هذا الدراسة أن كليهما اعتمد في البحث عن الحقيقة على منهج الشك. فالمنهج الذي اعتمده أبو حامد الغزالي في نقد الفرق المعاصرة له، مقارنة بأوغسطين كان علمياً أكثر، حيث أن كليهما اشتكا من قلق واضطراب نفسي صاحبه خلال تلك المراحل التي ذكرناها في الدراسة وجعلهما يختاران حياة الزهد أو حياة التصوف كما يصطلح عند المسلمين. فلم يرجع القديس أوغسطين إلى الحياة الطبيعية المعتدلة وبقي يعيش حياة التطرف في الزهد إلى درجة الرهبنة والعمل على نشر دعوته. بينما احتاج أبو حامد الغزالي إلى علاج روحي دام ثلاث سنوات ليمتلك بعده الوقاية من السقوط في تلك الأمراض القلبية مرة أخرى؛ كما أن كليهما جذب الناس إلى اختيار طريق الزهد والتصوف.

الكلمات المفتاحية: الاعتراف، الصوفية، الحقيقة، الروحانية، العقل، المادة، الروح.

Abstract:

Saint Augustine's Confessions and Abi Hamid Al-Ghazali's Rescuer from Error (al-Munqidh min al-Dalal): A Comparative Study

The Book of Confessions (٤ CE) by Saint Augustine, and the Rescuer from Error book (٥ AH), in Arabic (*al-Munqidh min al-Dhalal*), by Imam Abu Hamid al-Ghazali, are two historical documents of their personal biographies that reveal to us a summary of their intellectual journeys in search for truth. Both of them have experienced intellectual development

* عضو هيئة تدريس سابق بجامعة جدة.

that started with the enrichment of mind and matter; then moved to the search for something that nourishes and satisfies the soul, despite the fact that both of them belong to two different religions.
The current research study attempted to conduct a scientific comparison between the two scholars' approaches in order to monitor their intellectual development. The study adopted an inductive approach to trace the stages of their intellectual development. It also used the analytical critical approach for comparison between their approaches.
Among the results yielded by this research is that both of them relied on the method of doubt for truth-seeking. The method adopted by Abu Hamid al-Ghazali, compared to Saint Augustine's method, in criticizing their contemporary intellectual sects, was of more scientific nature. Furthermore, both of them complained of intellectual anxiety and psychological turmoil that accompanied them during those better known as Sufism in Islam. Saint Augustine did not return to ordinary life and continued to live a life of extreme asceticism to the point of monasticism and embarked on spreading his call. Whereas, Al-Ghazali needed a three years of spiritual healing to prevent himself from falling into that disease again. Both scholars attracted people to choose the path of Sufism.
Key words: confession, Sufism, truth, spiritual, mind, matter, soul

المقدمة:

إن موضوع السعادة مسألة تتجاذبها التيارات الفكرية بأشكالها المختلفة، وبالخصوص في الفكرين الديني والفلسفي. وكلاهما يجدان معنى السعادة في الوصول إلى الحق أو الحقيقة. وهناك من يرى الحقيقة في مذهب دون غيره أو يرى الحقيقة فيما وصل إليه العقل. وهناك من يرى الحقيقة فيما نتج عن الجمع بين العقل والوحي. غير أن الأول لا يلقي للروح بالا، بينما يوليها الثاني اهتماما خاصا. وحاجة الإنسان الروحية هي غريزة فطرية أودعها الله فيه، حيث لا يعرف استقرارا نفسيا إذا لم يجد طريقة يشبع بها هذه الحاجة. وهذه سنة الله في خلقه ثبت وجودها في البشر على اختلاف دياناتهم. لذلك نجد كل من يعاني فراغا روحيا يعيش قلقا واضطرابا نفسيا لا يفارقه. حتى من يدعي الإلحاد يستنجد بالإله عندما يكون في ورطة شديدة. ويشتد طلب الإنسان إلى الحاجة الروحية أكثر عندما يقع الصراع بين العقلية المادية والروحيات.

شاءت الأقدار أن يؤلف القديس أوغسطين، الفيلسوف المسيحي، كتابه "الاعترافات" في القرن الرابع الميلادي أي قبل بعثة النبي محمد ﷺ بقرنين. ويؤلف الإمام أبي حامد الغزالي الفقيه المجتهد الفيلسوف المتكلم المتصوف كتابه المنقذ من الضلال في القرن الخامس الهجري. وقد وصف كلاهما بشكل مختصر مسارهما الفكري في هذين الكتابين. فقد شرح أوغسطين كيف تحول هو من حياة قائمة على

العقلية المادية التي دفعته لأن يعيش حياة البحث عن تحقيق المجد والشهرة وتحقيق الشهوات الجنسية غير الشرعية إلى العقلية الروحية التي تجمع بين الروح والعقل والتي دفعته إلى البحث عن السعادة الروحية وترك ملذات الدنيا والزهد فيها. فيما نجد أن أبي حامد الغزالي وصف في كتابه المنقذ من الضلال كيف تحول من إشباع فضوله العقلي، الذي كان القصد منه محاولة التوفيق بين العقل والوحي، إلى اختيار الطريقة الصوفية لإشباع الجانب الروحي وتحقيق السعادة الأخروية.

لقد حاولنا من خلال هذا البحث أن نعقد مقارنة علمية بين هذين العالمين لرصد التطور الفكري لديهما. والهدف من ذلك هو استخراج البديهيات الفطرية التي أودعها الله عز وجل في مخلوقه الإنسان، التي تدفعه إلى البحث عن الحقيقة التي تجلب له الاستقرار النفسي بغض النظر عن الدين الذي ينتمي إليه. ونهدف من هذا البحث أيضا إلى إبراز دور الوحي في دعم العقل للوصول إلى الحقيقة التي تعرف في القرآن الكريم بالصراط المستقيم. كما يهدف البحث إلى إبراز أهمية التفريق بين الخاصة والعامة عند معالجة الأمراض القلبية والحذر من اعتماد التصوف الباعث على القعود والاتكالية كنمط للعيش. وقد اعتمدنا في هذه الدراسة المنهج الاستقرائي لتتبع مراحل تطور مسارهما الفكري؛ كما اعتمدنا المنهج النقدي التحليلي عند المقارنة بينهما.

ولتوضيح ومقارنة هذا التطور الفكري لدى أوغسطين وأبي حامد الغزالي من خلال كتابيهما المذكورين قسمنا البحث إلى ثلاثة فصول تناولت في الفصل الأول كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين بسبب الترتيب الزمني لا غير. وتناولت في الفصل الثاني كتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي. وأخيرا عقدت مقارنة بين الكتابين في الفصل الثالث.

خطة البحث:

الفصل الأول: كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين.

المبحث الأول: السيرة الذاتية للقديس أوغسطين (من كتب عن أوغسطين؟، خلفية تاريخية عن عصر أوغسطين، من هو القديس أوغسطين؟، مراحله التعليمية، مؤلفاته).

المبحث الثاني: دراسة وتحليل كتاب الاعترافات (عرض وتحليل لأفكار الكتاب).

المبحث الثالث: مراحل تطور فكر أوغسطين.

الفصل الثاني: كتاب المنقذ من الضلال.

المبحث الأول: السيرة الذاتية لأبي حامد الغزالي (من كتب عن الغزالي؟، خلفية

تاريخية عن عصر الغزالي، من هو الإمام أبي حامد الغزالي؟، مراحله التعليمية، مؤلفاته).

المبحث الثاني: دراسة وتحليل كتاب المنقذ من الضلال (عرض وتحليل لأفكار الكتاب)

المبحث الثالث: مراحل تطور فكر الغزالي

الفصل الثالث: مقارنة بين كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين وكتاب المنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي.

المبحث الأول: السيرة الذاتية (من كتب عنهما؟، الخلفية التاريخية لعصريهما، مراحلهم التعليمية).

المبحث الثاني: محتوى الكتابين (مراحل تطور فكر كل من القديس أوغسطين والإمام الغزالي).

الخاتمة: تضمنت أهم نتائج البحث.

الفصل الأول
كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين
المبحث الأول: السيرة الذاتية للقديس أوغسطين[1]

١. من كتب عن أوغسطين؟

حسب ما جاء في موسوعة الببليوغرافيا العالمية[2] فإن من بين أهم الأعمال التي يرجع إليها عن السيرة الذاتية لأوغسطين هي Basic Writings of Saint Augustine للمؤلف Whitney J. Oates في جزأين عام ١٩٤٨م والكتاب Saint Augustine and his Influence through the Ages للمؤلف Henri I. Marrou عام ١٩٥٧م؛ وكتاب Augustine of Hippo للمؤلف Brown, P. عام ١٩٦٧م. كما أورد Gareth B. Matthews[3] قائمة أخرى نذكر بعضها فيما يلي:

- Matthews, B.B. (١٩٩٢) Thought's Ego in Augustine and Descartes.
- Chadwick, H. (١٩٨٦) Augustine.
- Bubacz, B. (١٩٨١) St. Augustine's Theory of Knowledge: A Contemporary Analysis.
- Malcolm, N. (١٩٦٣) Knowledge of Other Minds.
- Wittgenstein, L. (١٩٥٨a) The Blue and Brown Books.
- Russell, B. (١٩٤٥) A History of Western Philosophy.

٢. خلفية تاريخية عن عصر أوغسطين:

عاش أوغسطين في المرحلة التي وصلت فيها الإمبراطورية الرومانية إلى مرحلة الانحطاط، وأخذت المسيحية تشق طريقها لتصبح الدين الرسمي؛ وكانت تلك

المرحلة تتميز بالاضطراب السياسي وانتشار واسع للدين المسيحي. وكان أوغسطين يمثل المرحلة الانتقالية التاريخية من مرحلة موت وثنية العصر القديم إلى مسيحية العصر الوسيط.[٤]

أما عن الوضع الفكري لعصر أوغسطين فيذكر توما الإكويني أن فلسفة القديس أوغسطين تعتبر قمة الفلسفة المسيحية في العصر الكنسي؛ إذ يعتبر الجامع لكل ما سبق من تفكير مسيحي في القرون الأربعة الأولى وما تلاها في القرنين الخامس والسادس خاصة عند آباء الكنيسة اليونان. وكان الدفاع عن الكنيسة الطابع الغالب على التفكير المسيحي عند آباء الكنيسة اليونانيين في القرن الثاني حتى آثر القديس إيرينيه Arhine بدفاعه عن المسيحية ضد الشيع الغنوصية التي نشأت بداخلها. وفي القرن الثالث ظهر نوع آخر من التفكير المسيحي في مدرسة الإسكندرية التي كانت ملتقى للتفكير اليهودي المسيحي واليوناني جميعا، وفي هذه الفترة كانت المسيحية قد انتشرت وإن كانت لم تكن قد أصبحت بعد الديانة الرسمية للدولة، وهذا ما حمل آباء الكنيسة على الاستمرار في نشر الدعوة الجديدة، وتأسيس الأخلاق الدينية والتربية المسيحية مع استمرار البناء والتكوين العقلي للعقائد والدفاع عن المسيحية ضد مهاجميها، فجاء كليمنت Clement وأورجين Origene وعلى أيديهما نشأت بوادر التغيير الروحي للإنجيل كما فعل فيلون من قبل في التوراة. ثم أتى أوزيبيديوس القيصري Eusebe de Cisaree يؤرخ للمسيحية وللتفكير المسيحي حتى منتصف القرن الرابع تقريباً أو حتى مولد القديس أوغسطين، أي عام ٣٥٤م.

وظهر التفكير المسيحي عند آباء الكنيسة اللاتين في القرن الثالث، كما ظهر عند آباء الكنيسة اليونان في القرن الثاني، فجاء ترتيليان Tertullien في قرطاجنة للدفاع عن المسيحية ضد الشيع والفرق التي نشأت بداخلها معادياً الفلسفة وأي محاولة لتعقل العقائد المسيحية، ثم أتى بعد منيسيون فيلكس مدافعاً عن العقائد المسيحية ضد اتهام المثقفين اليونان لها بأنها ضد العقل، ثم أرنوب Arnobe في هجومه على اليونان ولاكتانس Lactance في دعوته للوحي المسيحي. ثم بدأ اللاهوت الديني في القرن الرابع على يد القديس هيلير Saint Hilaire بكتاب التثليث والقديس أمبروز Saint Ambroise الذي يقبل القديس أوغسطين على يديه طقس العماد بعد أن سمع منهجه في التغيير الروحي للكتب المقدسة.[٥]

الأفلاطونية المحدثة في القرن الرابع:

بدأت الأفلاطونية في القرن الرابع بشرح ماكروب Macrobe على حلم

سيبيون Insomnium Seipionis معتمدا صراحة على أفلاطون وأفلوطين ثم أتى كاليديوس Chalaidius الذي ترجم محاورة طيماوس لأفلاطون مع شرح بوزيدونيوس Posidonius مقرراً ثلاثة مبادئ الله والمادة والمثال. فالله هو الخير الأعم، وبعده تأتي العناية وهي التي كان اليونان يسمونها العقل Vous وهنا يتضح كيف تركبت العقائد المسيحية على الثقافة اليونانية وتكونت كل عقيدة مسيحية على تصور يوناني يقابلها. وجاء نوريوس فيكتورينوس Norius Victorinus في شمال أفريقيا مهاجماً المسيحية في أولى عهده بالتفكير الفلسفي ثم اعتنقها وبدأ في شرح بعض رسائل العهد الجديد وترجمة تاسوعات أفلوطين هي الترجمة التي اعتمد عليها أوغسطين والتي اكتشف فيها أفلوطين، إلا أن أهم ما ساهم به هو لاهوته في توليد الكلمة الإلهية La generation du verb divin ، وفي هذا الجو الأفلاطوني الذي تتكون فيه العقائد المسيحية ابتداء من التصورات اليونانية نشأ القديس أوغسطين. [٦]

٣. من هو القديس أوغسطين؟

ولد القديس أوغسطين يوم ١٣ نوفمبر عام ٣٥٤م بتاغاست مدينة صغيرة كانت تابعة للملكة النوميدية التابعة للإمبراطورية الرومانية، وهي المنطقة التي تعرف اليوم بسوق أهراس الواقعة في الجنوب الشرقي من الجزائر. ولم يكن باتريسوس والد أوغسطين من الأغنياء، بل كان موظفاً إدارياً في الإدارة الرومانية للقرية، وكان وثنيا. أما أمه مونيكا فكانت تُعرف بالمسيحية الصادقة، ويحتمل أن والديه من أصول رومانية، وقد تكون لهم جذور نوميدية. [٧]

٤. مراحله التعليمية:

– **مرحلته التعليمية الأولى:** تعلم أوغسطين التعاليم الأولى للمسيحية قبل تعميده عن طريق أمه لما كان طفلا. ولما بلغ الحادية عشر أو الثانية عشر من عمره أرسل إلى ما دورا التي تبعد عن جنوب تاغاست بحوالي ٢٠ ميلاً وهذا حتى يدرس القواعد والأدب، وتخرج في هذه الفترة حتى طمح أبوه أن يجعله محامياً.

– **مرحلته التعليمية الثانية:** بعد أن مكث لمدة سنة في البيت ليجمع له والده المال ليذهب إلى قرطاج سنة ٣٧٠. وهناك في قرطاج أخذ دروساً في علم البيان. وفي سنة ٣٧١ توفى والده باتريسيوس. وفي سنة ٣٧٢ أنجبت له المرأة التي عاش معها في قرطاج ولداً أسماه آديوداشوس وهناك بالمدرسة أصبح يعرف بالرجل الهادي الصغير المُجدّ والمولع بالدراسة. ولقد كان مولعا باللغة اللاتنية أما اليونانية فكان يستخدمها فقط لترجمة النصوص.

لقد أوقعته قراءته لكتاب hortensius لمؤلفه سيزيروس Ciceros في حب مع الفلسفة؛ وتأثر بالمانوية. وأصبح كاتبا أو مبتدأ في مجال الفلسفة الدينية. وعند انتهائه من دراسته سنة ٣٧٣ آثر أن يتابع الأدب عوضاً عن القانون حتى يصنع شخصيته. وبعد أن درّس القواعد لمدة سنة في تاغاست عين نفسه خطيباً في قرطاج أين درّس في سنة ٣٧٥ الخطابة. وفي سنة ٣٧٧ شارك في مسابقة شهرية ففاز بجائزة مقابل الشعر الدرامي الذي قدمه. وبعد فترة وجيزة ألّف أول كتاب له بعنوان الجمال والملائم والذي اعتبره ليس ذي قيمة للحفظ.

وفي عام ٣٨٣ سافر أوغسطين إلى روما ليعين خطيباً، لكن أمله لم يتحقق، غير أنه بعد سنة عين بروفوسوراً للخطابة في ميلانو. ولقد التقى بـ آمبروس وتأثر به وبدأ يقرأ الأفلاطونية الحديثة وثمة تطورات أوضحها في اعترافاته. إذ في سنة ٣٨٦ أصبح مسيحياً،حيث تم تعميده من طرف القديس آميروس في ميلانو. وحدث هذا عندما كان في نقاش فلسفي ضد الحوار الأكاديمي. ونشر بعد ذلك كتاباً بعنوان "عن الحياة السعيدة والنظام". وبعد أن أصبح أوغسطين مسيحياً قرر العودة إلى أفريقيا ليحيا نوعاً من الحياة الرهبانية مع بعض أصدقائه ومع الناس. وأثناء فترة إعداده للرحيل ألّف عدة كتب مع سلسلة في الفن الحر. وبسبب وفاة أمه أخَّر عودته إلى أفريقيا، فبقي لمدة سنة في روما يتابع نقاشه الفلسفي، وقام بتطوير ثقافته عن العقيدة المسيحية وتطبيقها. وخلال هذه الفترة ألَّف عمله الأول عن أخلاق الكنيسة الكاثوليكية والمانويون. ولما رجع أوغسطين مع ولده وصديقيه في عام ٣٨٨ إلى تاغاستا، باع كل ممتلكاته وأعطى حصيلتها للفقراء ومع عدد قليل من أتباعه أرسى ديراً يصلح للصلاة والدراسة. وفي ٣٨٩ توفى أبنه الذي كان هو أيضاً من أحد أتباعه الذي تكفل بتربيته بنفسه تربية خاصة.

وفي عام ٣٩١ انقطع عن حياة الرهبنة فجأة عندما زار هيبو وهي عنابة حالياً الواقعة في أقصى شمال شرق الجزائر. فلما كان بالكنيسة طلب الأسقف من جماعة المصلين إيجاد مرشح للكهنوت فاختير أوغسطين بسرعة وعينه الأسقف ككاهن. وبعد ذلك في العام نفسه حول رهبانيته إلى هيبو وبدأ يؤدي واجباته الكهنوتية وكانت الدعوة عادة من واجبات الأسقف. وكان أوغسطين، كونه كاهن معنياً بهذا العمل، فبدأ خطبته مقتبسة من الإنجيل. وفي عام ٣٩٥ و٣٩٦ كان أوغسطين مدعو ليتولى القيام بحمل الأسقفية لمدة ٣٥ سنة فوجه كل طاقاته للدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية في جنوب أفريقيا. ولقد حاول من خلال لقاءاته وملتقياته أن يواجه الزنادقة

لذلك كتب ضدهم عدة مؤلفات وخاصة ضد المانوية والوهيبية والبلاجيوسية.[٨]

لم يفقد أوغسطين اهتمامه بوحدة الرهبنة، حيث حول رهبانيته إلى ملتقيات لاهوتية. ولقد تخرج على يديه كثير من الأساقفة والقديسين قاموا بنشر تعاليم وحماس أوغسطين. ورغم تنوع الأشغال والواجبات لدى أوغسطين لم يتوقف عن الكتابة؛ ففي سنة ٣٩٧ ألَّف كتبه الثلاثة، الأولى عن العقيدة المسيحية، وأنهى كتابه الأخير بعد ٣٠ سنة. وفي الوقت نفسه بدأ تأليف كتاب الاعترافات التي يبدو أنه نشره بعد أن انتهى منه في عام ٤٠٠م. ولم يكد ينته من هذا حتى أخذ يؤلف من الثالوث الأقدس الذي يعد من بين أحسن أعماله العقدية. وبعد نهب روما في عام ٤١٠م، دخل في مناظرات حول مسؤولية المسيحية عن سقوط المدينة الخالدة عن طريق مراسلات كان يجريها مع مسؤولين على علاقة الكنيسة بالإمبراطورية. ومن خلال ردود الأفعال تلك ألف كتاب "مدينة الله" الذي بدأ في تأليفه سنة ٤١٣م والذي ظهر كسلسلة لمدة ٣٠ سنة. وفي عام ٤٢٦ اتخذ استعداداته لنجاحه بمنصب أسقف هيبو واعتبر هذا المنصب مساعداً على تصنيف أو تجميع كل ما كان يزعجه في أعماله. وقد قرأ أوغسطين كل ما ألفه من كتب والنقاط التي ضمها فأخذ يراجع كل ما يمكن أن يراجع في عقيدتهم. وقد أبقى أعماله كما كانت وأدخل عليها تعليقات تحت ٢٣٢ عنوان منفصلة وليست مدرجة في رسائله وخطبه، وعليه اعتبرت مفصولة. وفي الوقت الذي كان يشتغل بتلك المهمة دخلت شمال أفريقيا في حرب أهلية استدعي الوندال من أسبانيا إلى أفريقيا للمساعدة ضد قوات الإمبراطورية غير أنهم قدموا لمصالحهم الخاصة وليس للمساعدة. ففي عام ٤٣٠م انهزمت قوات الإمبراطورية وحولت اللاجئين إلى هيبو وهناك حوصروا من طرف الجيش الوندالي. هنالك عندما بلغ الحصار شهره الثالث توفى أوغسطين في ٢٨ أغسطس عام ٤٣٠م.[٩]

٥. مؤلفاته:

يقول بنجامين ورفيلد[١٠] Benjamin Worfield إن أوغسطين بدأ التأليف قبل أن يصبح مسيحياً إذ نشر ما يقارب من ٣٨٠ دراسة فنية تعتبر الآن مفقودة. غير أن مؤلفاته العجيبة ظهرت مع اعتناقه المسيحية. وكانت أعماله الأولى عبارة عن سلسلة من البحوث حول الفلسفة الدينية، فأسس الفلسفة المسيحية؛ ثم أتبعها بأعمال ومؤلفات انتقد فيها المانويين والدونيتيين والبيلاجيوسيين؛ ثم دراسات خاصة بالأخلاق. وتوج كل أعماله بأربعة أو خمسة كتب مشهورة على رأسها كتاب الاعترافات الذي ألفه ما بين ٣٩٧–٤٠٠م حيث حلل فيه تجربته الدينية وابتكر نوعاً جديداً من أشكال الأدب.

ثم كتاب العقيدة المسيحية سنة ٤٢١م؛ ثم كتاب عن الإيمان والأمل والصدقة بين ٣٩٧-٤٢٦م؛ ثم ألّف كتاب التثليث بين ٣٩٥-٤٢٠م؛ ثم كتابه "مدينة الله" Civitate Dei بين ٤١٣-٤٢٦م.

ويشير Chadwick (١٩٨٦) إلى أن القديس أوغسطين قد ترك ما يقارب من مائة كتاب وبحث كما ترك ما يقارب مائتي رسالة وأكثر من خمسمائة خطبة.[١١] ويذكر Gareth B. Matthews أن أوغسطين ألَّف ما بين عامي ٣٨٦ و٤٢٩ ما يقارب ٢٦ كتاباً من بينها:

Soliloquies الذي ألفه سنة ٣٨٦؛ كما ألَّف عن اللهجات سنة ٣٨٧؛ ثم ألّف أخلاق الكنيسة الكاثوليكية عام ٣٨٩/٣٨٧؛ وأيضاً الدين الحقيقي ٣٩١/٣٨٩؛ وأيضاً عن الكذب ٣٩٤؛ والرد على فوستوس ٤٠٠؛ و كتابه الشهير مدينة الله ٤١٣-٤٢٧؛ وحول العناية بالموتى ٤٢١؛ وآخر ما كتب قدر القديسين ٤٢٩.

المبحث الثاني: دراسة وتحليل لكتاب الاعترافات

المقدمة:

لم يضع القديس أوغسطين مقدمة لكتابه الاعترافات لنتعرف على إشكالية الكتاب؛ أي لماذا ألَّف الاعترافات وما هي الأسئلة التي يريد أن يجيب عليها في كتابه. وقد أشار المترجم"[١٢]R. S. Pine Coffin" إلى أن السبب الذي دفع أوغسطين إلى كتابة هذا الكتاب، ليقنع نفسه بانتمائه للمسيحية، ولإقناع قراءه أن هذا الإيمان الذي تحدث عنه هو الإيمان الحقيقي الوحيد. وللقيام بذلك كتب هذا الكتاب بأسلوب عاطفي روحي جياش أبعده عن المنهج الأكاديمي الذي اعتاد عليه.

ويعرف وول ديورانت كتاب الاعترافات بأنه "أول ما كتب من التراجم الذاتية وأوسعها شهرة، والكتاب موجَّه إلى الله تعالى مباشرة بوصفه توبة إلهية من الذنوب. ويبدأ الكتاب بوصف ما اقترفه من الذنوب في صباه، ثم يروي صفة هدايته في وضوح، ويتخلل هذه القصة أحياناً نشوة قوية من الصلوات والأدعية، والاعترافات في صورة نثر.[١٣]

ويذكر جوستاف جرونيباوم[١٤] بأن اعترافات أوغسطين هي أقدم وصف باق إلى الآن للعملية النفسانية التي تقتاد عقلا متدينا إلى الاستيلاء من جديد على عقيدة طفولته مع النسق فيها. فعندما سرحت الشكوك بأوغسطين عكف على دراسة كل ما يقع تحت يده من تعاليم، وبعد أن خاض غمرات الفشل واليأس الممطر أظهر على الصدق الكامن في العقيدة الكاثوليكية التي لم يفهمها على صحتها إلا آنذاك فقط.

والسيرة التي يلوح أنها نسمات بفضل مواهبه الغنية عن أن تكون مجرد هيكل لهذا التحول إنما تروي لا جرم بعناية في الاختيار، غايتها توضيح مراحل ومنطق هذا التطور وتبريرهما، وأن تنظمهما فوق كل شيء في نظام مضبوط. والاعترافات –وهي تعليمية مثالية أكثر منها وصفية– تكشف لنا صورة تقليدية لحياة إحدى الشخصيات التقليدية إلى حدها، وقد جردت من كل تفصيل صحيح رؤي أنه زائد عن الحاجة اللازمة لتوضيح صعود المؤلف وتساميه. وعلى الرغم من كل القيود التي فرضها أوغسطين على تصويره لذاته فإن الاعترافات مليئة بالحوادث والتأملات التي ترد شخصيته إلى الحياة. وعندما يتحدى رجال أقل منه شأناً لاستخدام خبراتهم مثالا يحتذى ونبراسا يرشد للطريق الموصل إلى الحق، يضعف تكامل السيرة وبسطها وتطورها ويفقد عصر الترجمة اهتمام الكاتب، وعند ذلك يروي قصة شفاه النفس مقتصرا على أدنى درجات وصف الوضع الشخصي فحياته لديه ليست جديرة بالذكر إلا من ناحية ما يعود منها على الناس من درس أخلاقي أو ديني ليس غير. وتتقلص الشخصية حتى تصبح أداة لاستكشاف الحق.

عرض وتحليل لأفكار الكتاب:

يتكون كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين من ١٣ فصلاً.

تحدث في **الفصل الأول**، عن مرحلة الطفولة حيث تكلم فيه عن ذهابه إلى المدرسة بتاغاست ثم إلى مادورة وكيف تلقى بعض التعليمات المسيحية عن أمه، وكيف أُجل تعميده بسبب مرضه الخطير. ثم يشير في هذا الفصل كيف كان طفلاً شريراً رغم صغر سنه. ابتدأ اعترافاته باعترافه بمكانة الإله ووجوب شكره ومدحه قبل الصلاة له وأخذ يرجع كل شؤون وتدبيرات حياته التي أحاطت به بقدر من الإله الذي يعبده وحتى الحب الذي منحته إياه أمه أودعه الله فيها لأنه أراد له الخير فإن كل خير سواء كان مادياً أو روحياً وصله بفضل الله. وقد استمر على هذا النمط في المدح والشكر والاستغفار في كل فصول الكتاب. وقد تحدث بالتفصيل عن مرحله الطفولة ابتداء من مرحلة الرضاعة إلى مرحلة الصبا حيث أشار إلى أنه كان في صلاته مجرد مقلد لمن حوله لا أكثر، وبقي على السلوك الذي وصف به نفسه.

أما في **الفصل الثاني**، فقد أشار إلى أنه قد قضى سنة في البيت قبل أن يذهب إلى قرطاجة لمتابعة دراسته، كما تطرق لذكر الأحداث التي جرت له في هذه الفترة من رغبة المراهق الجنسية وكيف كانت تلك المشاعر والرغبات تراوده ويسعى لتحقيقها وذكره لحادث سرقته لشجرة الإيجاص وأخذ يصف كيف ارتكب ذلك الخطأ

وأخذ يعتذر له. وأثناء وصفه لنفسه وهو في دور المراهقة يقول إنه كان "كذوباً، عربيداً، مخادعاً" فقد بالغ في رذائله لما كان يسببه له وخز ضميره المرهف الحساسية متأثراً بلذعات لسان أمه المتزمتة.

وفي **الفصل الثالث**، بدأ أوغسطين يقص علينا مرحلته التعليمية الثانية عندما ذهب إلى قرطاجة وهجر حياة البهجة. وأشار هنا إلى مرحلة مهمة في حياته عندما اطلع على كتاب Ciceros بعنوان Hortansieus في مجال الفلسفة. فتعلق بها تعلقاً شديداً إذ يشير هنا إلى أن كل أحلامه الفارغة فقدت فجأة جمالها. وبدأ قلبه يتطلع إلى الحقيقة الأبدية وكان قد بلغ ١٩ سنة، وهكذا بدأت معه مرحلة البحث عن الحقيقة حتى يزيل الشك الذي كان يراوده. ثم أخذ يدرس الكتب المقدسة ليرى نوعية تلك الكتب فبدت له مقارنة بكتاب Ciceros أنها لا تستحق المقارنة لبساطتها، فقد كان معجباً بنفسه هذا ما جعله لا يقبل بساطتهم في الطرح وعدم تعمقهم رغم أنه كان يعلم أن هذه الكتب تكبر مع كبر الطفل لكن كبريائه كان يجعله يعتبر نفسه رجلاً عظيما وليس طفلاً. وبقي السؤال الذي يراوده في هذه الفترة "أين هي الحقيقة". وبعد المطالعة المستفيضة اعتنق أوغسطين الديانة الفارسية المانوية التي تنزع إلى النزعة العقلية المادية، واستغل انتمائه إليهم لتحقيق مجده رغم شكه في صحة ذلك المذهب. وقد بقي بتخبط في سلوكاته الغرائزية وكانت أمه مونيكا محبطة حزينة رافضة لأفكاره الجديدة عن المانوية.

أما في **الفصل الرابع**، فقد أشار فيه إلى أنه خلال تسع سنوات (١٩ – ٢٨ سنة من عمره) كان مدرساً في فن الخطابة العامة بتاغاست وأنه اتخذ عشيقة اختارها بدون أي سبب لكن بقي معها وفياً. وعندما دخل في مسابقة شعرية حول الأبيات الدرامية اتصل به ساحر يطلب منه دفع نقود مقابل أن يجعله يربح المسابقة، فرفض ذلك، وهذا ما جعله يهتم بعم الفلك ويتعرف عليه. كما أشار إلى وفاة صديق عزيز عليه تعرف عليه لما كان يدرس بتاغاست وأخذ يصف الخوف الذي راوده في تلك الفترة كيف كان يرى الموت في كل مكان لشدة تأثره بوفاته. واستغل الفرصة ليتحدث عن مكانة علاقة الصداقة في نفوس الناس. كما أشار إلى الكتاب الذي ألفه عن الجمال والملائم لما بلغ من العمر ما يقارب ٢٦ أو ٢٧ سنة. كما ذكر أنه اطلع على كتاب أرسطو الذي لم يشر إليه أساتذته وحاول فهمه بمفرده وبدون مساعدة أي شخص رغم صعوبته بدليل أن البعض اعترف له بأنهم فهموه بصعوبة.

وفي **الفصل الخامس**، أخذ يتحدث عن الأحداث التي جرت له وهو في

التاسعة والعشرين من عمره، إذ يذكر أن فوسطوس أحد أساقفة المانويين قدم إلى قرطاجة؛ وقد أصيب أوغسطين بخيبة أمل عند التقاءه به واستماعه إليه لأنه وجد أن فوسطوس لم يستطع التمييز بين العقيدة المانوية والحقائق العلمية. كما ذكر في هذا الفصل أنه خالف رغبة أمه وذهب إلى روما حيث بقي على اتصال بالمانويين لكن لم يعد يثق في شيء من عقيدتهم. ومن جهة أخرى اجتذبته تعاليم الأفلاطونية الحديثة، وفي هذه الفترة عُين أستاذاً في علم البلاغة في ميلان كما استمع أثناءها إلى خطب القديس أمبروز Ambrose وفي هذه المرحلة أنكر نهائياً العقدية المانوية. وهنا تبدأ مرحلة أخرى في حياته الفكرية حيث انتقل من تأثره بالعقيدة المانوية إلى تأثره بالأفلاطونية.

أما في **الفصل السادس**، فقد تحدث عن مجيء أمه مونيكا إلى ميلان وكيف كان يتردد للاستماع إلى خطب القديس أمبروز وخلص إلى أن تلك المفاهيم التي كان يطرحها كانت خاطئة، وخلص أيضاً إلى أن المفاهيم الدينية لا تفهم دائماً بالمعاني الأدبية. كما أشار إلى أن طموحاته والصعوبات التي واجهها أمام الاغراءات الجسدية حالت بينه وبين معرفة الحقيقة التي كان يسعى للوصول إليها، فقد كان يعيش في قلق شديد تتجاذبه الشهوات ويؤنبه الضمير وسخط أمه. وأمام ذلك الصراع النفسي حاول أن يقلع عن تلك الرذائل التي كان يتخبط فيها فقرر الزواج والتخلي عن شكوكه غير أنه تراجع فيما بعد وقرر اختيار حياة العزوبة.

وفي **الفصل السابع**، أخذ أوغسطين يذكر القلق الذي بقي يراوده عن الإله كموجود روحي وعن إيجاد تفسيرات لمشكلة الشر إلا أنه وجد أجوبته في كتب أفلاطون. وهنا بدأ يقرأ الرسائل الإنجيلية.

أما في **الفصل الثامن**، فقد تكلم فيه عن هداية فيكتوريوس مترجم أفلاطون. ولقد كان أوغسطين شغوفاً بتقليد قدوته، لكن طموحاته العالية والصعوبات التي بقي يواجهها من الرغبات الجسدية لم تسمح له بالمضي قُدماً للترفع عن الرذائل. وبعد أن سمع كيف أن جنديين من الإمبراطورية اعتنقوا ما قرأه عن أنطوني المصري ذهب إلى حديقته فسمع طفل يغني فاعتبر أن ذلك الغناء وحي من السماء حيث يقول فيه "أخرج الكتاب واقرأ" فأخرج الإنجيل فقرأ فقرة من إحدى رسائل القديس بولس: "لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، وليكن بالله إيمانك". ومن هذه اللحظة قرر ألا يعود إلى ارتكاب الرذائل والمعاصي، حيث يخبرنا عن ذلك بقوله "بأنني ما إن بلغت نهاية الجملة حتى شعرت تواً أن كل ضلال الشك قد انقشعت إذ

انسكب في قلبي نور هادئ صافٍ".[١٥] فاكتملت هدايته وفرحت أمه بتوبته.

أما في **الفصل التاسع**، فيخبرنا بأنه أجَّل موعده وذهب مع أصدقائه إلى بيت بكاسيسياكم وفي العام الثاني رجع إلى ميلان حيث تم تعميده عام ٣٨٧م ثم قرر العودة إلى شمال أفريقيا مع أمه وأصدقائه حيث أصبح في عام ٣٩٦ أسقفاً لـ هيبو واستمر يشغل ذلك المنصب حتى وفاته. وفي هذا الفصل يخبرنا عن موت أمه مونيكا التي بقيت مدة حياتها تدعو ابنها إلى حياة الطهر وترك الرذيلة، وفارقت الحياة بعد أن رأت ابنها قد رجع إلى حياة الاستقامة والطهر.

وأما في **الفصل العاشر**، فإن أوغسطين يوجه كلامه إلى قارئه الذي يتوقع أن يتعلم منه فيدعوه إلى أن يحمد ويشكر الإله من أجل هدايته له ويصلي له. واعترف في هذا الفصل بقوة الأخلاق وأثار مسألة مهمة وهي أن السعادة كل السعادة في الإله تلك السعادة التي يبحث عنها كل إنسان. اختبر قدراته في التحكم في مختلف الإغراءات الخاصة بجسمه فذكر بأن الإنسان إذا كان يملك القوة لمواجهة تلك الإغراءات فهذا يتم بفضل الإله ويكون عن طريق المسيح الوسيط الحقيقي الذي نطمح أن يكون. كما خلص أن المسيح هو الوسيط الوحيد الذي يمكن أن يسترضي لنا الإله.

أما في **الفصلين الحادي عشر والثاني عشر**، فقد أعطى أولاً مفهوماً خاصاً للسفر الأول من سفر التكوين وهو "في البداية صنع الله السماء والأرض" فهو يرى أن الإله صنع العالم بكلماته وحدها إذ من خلال كلمة "في البداية" يجب أن نفهم المعاني الحقيقية للكلمة إذ أن أول سؤال يطرح عن كلمة "في البداية" ماذا كان يفعل الإله قبل أن يخلق السماء والأرض. فيقول أوغسطين أن قبل الخلق كان الخلق معدوماً فالوقت كان معدوماً أيضاً وعليه فلا معنى لذلك السؤال أي ماذا كان يفعل الإله. هذا يرجع إلى نقاش حول مشكلة الوقت. وبعد هذا، تابع شرح السفر الأول، وذكر أن الله خلق في البداية السماء والأرض، معنى ذلك أن الأرض كانت لا ترى وليس لها شكل والظلام كان يسود في الآفاق وكلمة السماء هنا تعني الخلق الروحي وسماء السماوات؛ والأرض هي الشيء غير المشكَّل الذي صنع به العالم؛ والسماء التي فوق الأرض هي القبة الزرقاء التي خلقها الإله في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث خلق الأرض والبحر مع إعطاء الشكل للمادة أو الشيء غير المشكَّل والذي خلقه قبل اليوم الأول. وتناول أوغسطين بالدراسة كيف أن سماء السماوات تفرعت عن مادة الخلق. وناقش في هذا الفصل تفاسير أخرى لذلك السفر.

أما في **الفصل الثالث عشر** والأخير، فقد تناول فيه تفسير الفصل الأول من سفر التكوين بأسلوب المجاز أو القصة. حيث يذكر أن النور الذي خلقه الإله في أول يوم هو مخلوق روحي الذي تحول ببركة الإله بالتدرج إلى النور المعهود عليه اليوم. أما الظلام الذي شقه الله من النور فيمثل الروح الخالية من نور الإله. وأما السماء التي تفصل بين الماء العلوي والماء السفلي فهي صورة تركيبية تشبه من يحتمي ويتمسك بنا لنحميه. وفوق تلك السماء هناك الملائكة محمية بوجود الإله. وفي اليوم الثالث من الخلق جمع الماء مع بعضه البعض ليتشكل البحر، وأمر الإله اليابسة أن تظهر. والبحر يرمز إلى الأصل الإنساني السيئ الذي تمرر قلبه بالوحشة من شدة ابتعاده عن الإله، والأرض الجافة تمثل الروح الطيبة لأن الأرض تنبت فيها الأشجار التي تثمر الفواكه والتي ترمز إلى الرحمة والصدقة. أما النور التي أرساها الخالق في السماء في اليوم الرابع فهي تمثل الحكمة والمعرفة التي أعطاها للإنسان، لذلك فالذي يملكهما يضيء مثل النور في العالم، أي نوره ينتشر في الأرض. وفي اليوم الخامس أمر الإله الماء أن يجلب أربعة مخلوقات متحركة وهذه تمثل القربان الذي من خلاله يقتنع بالحقيقة والذي يساعده على اجتناب إغراءات العالم والأشياء السريعة التي أمر الإله الماء إنشاءها هم المعلمين الذين يؤدين رسالة الإله للإنسان. وفي اليوم الثالث أمرت الأرض بإنشاء الروح التي تعيش وتحيى تلك الروح التي تحمل الإيمان وتجعل نفسها على اتصال بحب العالم. وقد صُنع الإنسان في شبه أو صورة الإله لذلك أعطاه هدية العقل ليتعرف بها على حقيقة الإله. وقاعدته مع الحيوان هي رمز لذلك، ورمز لقوة الأحكام الروحية التي منحت للكنيسة. أما النباتات التي منحت للإنسان ليأخذ منه أكله تمثل أعمال الصدقة التي تطعم الروح. وفي اليوم السابع ارتاح الإله مثلما نرتاح نحن في الأزل بعد أن ننهي كل أعمالنا.

المبحث الثالث: مراحل تطور فكر أوغسطين

مثلما أشار جوستاف فإن كتاب أوغسطين "الاعترافات" تعليمي أكثر منه وصفي. فهو يريد من كتابه أن يتعلم قراءه كيف يكون الإيمان الصحيح. ولقد بدأ أوغسطين حياته كما اعترف هو بنفسه في الفصول الأولى أنه كان منحرفاً. ولم يكن يبغي أكثر من أن يستمتع بالحياة، ويضيع عمره في ارتكاب العديد من الخطايا. ففي غير ساعات الدراسة كان ينغمس في شهوات البدن "متمرغاً في وحل بابل" فعاشر امرأة من غير زواج رسمي وولد له ابن غير شرعي؛ وتوفي أبوه وهو في السابعة عشرة من عمره؛ وأخذت أمه تعنفه على سلوكه ولكن لم يتغير. وظل يرتكب جرائم

الزنا ويدنس زوجات الرجال الآخرين ثم يتوب في النهاية غير أنه يرجع إلى ذلك وبقي يصارع نفسه ويعنفها على ذلك وسمى نفسه "النفس الضالة في بحر من الوحل". وأخذ يركض وراء "الرفعة والربح والثناء" عندما ذهب إلى روما ثم ميلان وبقي يتساءل "ما الغاية من هذا كله". وبعدئذ حدث له حادث جعله يتوقف عن البحث عن المجد إذ بعد أن ألقى كلمته التي يثني فيها على الإمبراطور مليئة بالكذب وقوبلت بالتصفيق فخرج معجباً بنفسه يتجول في شوارع ميلان التقى بمتسول يتمتع بمعدة مملوءة فالمتسول لم يتكلف جهداً للحصول على تلك الكرة بينما هو يتكلف ذلك جهداً فأدرك حينئذ أن الربح الذي يستحق أن يحرزه الإنسان ينبغي أن يكون نجاحاً روحياً لا نجاحاً مادياً فسعادة الإنسان لا تقوم على لذة الجسد وإنما تقوم على نشوة الإيمان فأساس السعادة إذن هو الإيمان بخيرية الله وبالرجاء في خلاص النفس. غير أنه هنا يذكر أنه سيطر على كبريائه ولكن لم يزل يسيطر على شهوته، فقام بتنظيم جماعة تعيش على الشيوع ودعا أصدقائه لمقاومة "كفاح الطموح واضطراب الحياة" غير أن هذا الجمع ما لبث أن تشتت.

مرحلة القلق الفكري الأول عند أوغسطين:

- **تأثره بالمانوية:** رأينا في الفصل الثالث من كتاب الاعترافات كيف بدأت مرحلة مهمة في حياة أوغسطين ابتدأت في مرحلة تعليمه الثانية، عندما قرأ حوار Cecere وهو هورطوسيوس Hortausius جعله يتعلق بالفلسفة وكان قد بلغ من العمر ١٩ سنة فاعتنق الديانة المانوية لمدة تسع سنوات. ويبدو أن ما جذب أوغسطين إلى هذه الديانة خصوصاً هو ذريعة الأخلاق العالية عند هذه الطائفة، وانتقاداتهم لصعوبة الكتاب المقدس وشرحهم لأصل الشر بافتراض أن له مبدءاً مستقلا حيث كانت تفسر الشر تفسيراً مقبولا بوجود مبدأين أصليين مبدأ النور ومبدأ الظلمة وأنهما يتنازعان العالم منذ الأزل.[١٦] وحسب ما جاء في موسوعة الببلوغرافيا العالمية[١٧] فهذه الديانة التي تعتقد بأن في العالم قوى مضادة لقوى الخير والشر المدعوة بـ"أورموزد" و"أهريمان" على التوالي وعراكهما كان يتمثل في الإنسان بين الروح التي تمثل الخير والجسد الذي يمثل الشر. وبعد أن أخذ أوغسطين فقه قواعد اللغة اللاتينية والآداب فتح مدرسة بقرطاجة خاصة بعلم البيان سنة ٣٧٣م وفي هذه الفترة أخذ يفقد ثقته في المانوية وهذا يرجع بالخصوص إلى ما وجده في عقيدتهم إذ لم يجد مبرراً واضحاً للتضارب الموجود بين قوة الإله والشر، ولا يوجد تعليل لطبيعة الإنسان الحقيقية. وفي سنة ٣٨٣م انتقل أوغسطين إلى روما لتدريس فن الخطابة غير أن

سلوكيات طلابه جعلته بعد سنة ينتقل إلى ميلان ليصبح أستاذاً في علم البيان. وبروما تعاطف أوغسطين مع الشك الفلسفي الأكاديمي لـ كارنيدس وشيشرون. وفلسفة الشك تؤمن بأنه لا يمكن الوصول إلى الحقيقة المطلقة لأي موضوع فمعتقدات الإنسان يجب أن ينظر إليها من منظور الشك. وفي سن السادسة أو السابعة والعشرين من عمره ألَّف أول كتبه وهو رسالة في الجميل والملائم وفيه استلهم مذهب المانوية غير أنه بعد ذلك بدأ يشك في صحة هذا المذهب ومع ذلك بقي تابعاً لهم حتى يستعين بهم على قضاء حوائجه كرعاية في مرضه الخطير وفي الحصول على منصب للخطابة بميلان، وهناك حرص على الاستماع إلى خطب أمبروس Ambrose أسقف ميلانو، ومقدرة هذا الأخير على تأويل أقوال العهد القديم من الكتاب المقدس، وفي هذه الفترة قرر أن يهجر أصدقاءه المانويين وأن يتهيأ للالتحاق بالكنيسة الكاثوليكية إلى أن يستطيع أن يتخذ القرار الحاسم.

ومثلما رأينا في الفصل الخامس من كتابه أنه خاب أمله في فوستوس الذي لم يستطع التفريق بين عقيدته والحقائق العلمية، فسافر إلى روما لطلب المجد والثروة. وبعد تركه المانوية أخذ يهاجمها بعد تحوله إلى النصرانية، فأثناء إقامته بروما في صيف ٣٨٧م ساند البابا سيريسيوس في صراعه ضد المانويين وكتب رسالة ضدهم وكان ذلك بداية لتأليفاته الكثيرة في الدفاع عن أصول العقيدة الكاثوليكية، وكان قبل ذلك بسنوات أثناء مقاومة بتاغاستا في ٣٨٠م أنجز كتابه رداً على المانويين وقد ناظره الكثيرين منهم فألّف كتاباً بعنوان رداً على فورتونانتوس المانوي[١٨] فرد عليهم في مسألة الخلق بأن الله هو الخالق؛ وفي مسألة الشر بأن الشر إنما هو غياب الخير، وهذا ما توصل إليه بعد بحثه الشاق عن الحقيقة وقد استقر إيمانه على هذا التغيير.

– **مرحلة القلق الفكري الثاني:** لقد رأينا أن أوغسطين بقي يبحث عن الحقيقة كلما دعت الفرصة إلى ذلك فهو اطلع على علم الفلك أيضاً ليفهم خباياه. ولما بلغ سن التاسعة والعشرين التقى بفوستوس لتبدأ مرحلة جديدة في حياته الفكرية إذ خاب أمله في فوستوس الذي كان يعتبر مصدراً أساسياً للمنويين فهذا الأخير لم يستطع التمييز بين العقيدة المانوية والحقائق العلمية. وفي هذه الفترة تعرف على تعاليم الأفلاطونية الحديثة.

– **تأثر أوغسطين بأفلاطون:** في ميلان اجتذبت أوغسطين خطاب القديس أمبروز Ambrose وكان للأتباع الذين كانوا ملتفين حول أمبروز يجمعون بين الأفلاطونية والمسيحية وكانوا ينظرون إلى أن الأفلاطونية كانت تتلائم مع المسيحية من خلال

قراءاته للأفلاطونية ويمكن أن تكون كتب أفلاطون وبورفيري Porphyry نتيجة التقاءه بمسيحيين أفلاطونيين اقتنع أوغسطين بتلك الأفكار الأفلاطونية الروحية والميتافيزيقية وفكرتهما القائلة بأن الشر كان مجرد فقدان للخير، وهذا ما عوض الفكرة المادية والمانوية التي كانت في ذهنه. بدأ شك أوغسطين ينحل في معتنقه الجديد، يبقى أن هذا التحول العجيب يعتبر بالنسبة له تحول ثقافي ولما كان ينقصه، وشرع فيه هو قدرته على اعتناق المسيحية وقبول المسيح.

– **اعتناقه للمسيحية:** لقد وصف أوغسطين الدافع المباشر لاعتناقه المسيحية في كتابه الاعترافات لما سمع صوت طفل وهو في الحديقة يردد "خذ واقرأ"[١٩] فاعتبر هذا الصوت أمراً من السماء فأخرج الإنجيل الذي كان يحمله في إحدى تثنيات عباءته وفتحه كيفما اتفق فكانت "فقرة من إحدى رسائل القديس بولس". وكان قد قرأ: "لا بالبطر والسكر، لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد، ولكن بالله إيمانك". ولم يكن في حاجة إلى المزيد من القراءات، كما يخبرنا بنفسه: "لأنني ما إن بلغت نهاية الجملة حتى شعرت تواً أن كل ظلال الشك قد انقشعت، إذ انسكب في قلبي نور هادئ صاف" فأصبح أوغسطين بذلك مسيحياً وعمد من طرف إمبروز في عام ٣٨٧م. ولم يكن هذا التحول الأخير نتيجة الإعلان الإلهي فحسب وإنما كان أيضاً نتيجة دراسته الطفولية للأفلاطونيين وقد كان أفلاطون شأنه في ذلك شأن بولس يصر على أن "النفس إذ ما بدأت ترقى إلى الله فإنها يجب أن تتخلص من شهوات الجسد".[٢٠] وبعد تعميده رجع إلى شمال أفريقيا حيث أصبح في عام ٣٩٦ أسقفاً لـ هيبو واستمر يشغل ذلك المنصب حتى وفاته في عام ٤٣٠ حيث أصبحت هيبو تحت حكم الوندال.

– **مرحلة الهدوء والاستقراء الفكري عند أوغسطين:** بعد اعتناق أوغسطين المسيحية وترك عالم الشهوات واللذات دخل عالم الروح وأخذ يشبع رغباته الروحية، حيث وجد سعادته، التي هي السعادة التي يبحث عنها كل إنسان، فزهد في الدنيا وأخذ يشبع رغباته الروحية وهذا ما يبدأ التفصيل فيه في الفصل التاسع ثم العاشر. ويؤكد على أن سيطرته على شهواته كانت بفضل الله الذي منحه القوة للسيطرة على الاغراءات الخاصة بجسمه. وقد وصف نبذه للجسد من أجل ترويض الروح في فقرة من أبلغ الفقرات تأثيراً في كتابه الاعترافات، فحدث أنه كان يجلس في حديقته مع صديق حميم وجرهما الحديث إلى ذكر أمبروز المسيحي الورع الذي كان قد قابلاه في ميلان، وما إن بدأ أوغسطين يفكر في أمبروز الذي هو أتقى الناس وأفضلهم حتى هاجت أشجانه بطريقة غير عادية " فوجدتني أتأرجح قبل أن أتخذ قراري النهائي أتأرجح بين

نزعتين متناقضتين تتصارعان من أجل امتلاك روحي أسمع نداء الجسد الصاخب وصوت الله الذي كان لا يزال ضعيفاً" فلما رأى صديقه الحال التي كان عليها من القلق والاضطراب لم ينبس ببنت شفة خشية أن يشتت أفكاره. وفي النهاية تفجر أوغسطين بالبكاء ولما خجل من مظهره وهو يبكي كالمرأة استأذن واتجه إلى ركن منعزل من الحديقة وهناك تحت ظل شجرة ارتمى على الأرض وأطلق لعاطفته المكتومة العنان ومكث هناك حيناً[٢١] حتى أن أتاه الحق في صوت طفل كما ذكر ذلك في الفصل الثامن. ودخل أوغسطين مرحلة استقرار نفسي مع طريق التصوف التي اختارها فلقد تبرع بجزء من أملاكه للكنيسة وبجزء آخر للفقراء ولم يحتفظ لنفسه إلا ببيت جعله مكان للعبادة ولجماعة من المتعبدين من أنصاره ووزع أوقاته بين العبادة وفلاحة الأرض. وبعد تعميده مع اليبسوس وأديوداش صمم أربعتهم على أن يذهبوا إلى أفريقيا ليعيشوا فيها معيشة الرهبان فعاش مع جماعة ألفوها مع بعض في تاغاستا فقراء عزاباً منقطعين للدرس والصلاة وعلى هذا النحو وجدت الطريقة الأوغسطينية عام ٣٨٨م وهي أقدم أقوى رهبانية في الغرب كله.[٢٢] ونجده في فعله الأخير كيف يربط النتائج التي وصل إليها بتغيير سفر التكوين فهو أراد أن يدعو إلى عقيدة سعيدة بدليل مخلوقات الله، ويعطي للكنيسة والأساقفة الشرعية المطلقة بدليل الفصل الأول من سفر التكوين حسب الشرح الذي وضعه، وتبدو شروحه كلها تتجه نحو رد الرذيلة ومدح الفضيلة بأشكالها.

الفصل الثاني
كتاب المنقذ من الظلال للإمام أبي حامد الغزالي
المبحث الأول: السيرة الذاتية للغزالي[٢٣]

من كتب عن الغزالي؟

لقد كتبت مؤلفات كثيرة عن الإمام أبي حامد الغزالي، ولا تزال تؤلف لعلو شأنه في الساحة الفكرية القديمة والحديثة. وأول من بدأ يكتب في سيرته حسب ما أورده الدكتور عبد الأمير الأعسم وغيره، هو عبد الغافر الفارسي المتوفى سنة ٥٢٩هـ، وهو معاصر للإمام الغزالي المتوفى عام ٥٠٥هـ؛ ثم تلميذه أبي بكر بن العربي تلميذ الغزالي في كتابه "القواصم والعواصم"؛ واعتمد على هذين المصدرين كل من جاء بعدهما أمثال ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) حيث نقل مباشرة عن عبد الغافر الفارسي في كتابه "تاريخ دمشق" و"تبين كذب المفتري". وكتب عنه ابن الجوزي أبو الفرج (ت ٥٩٧هـ) في كتابه الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر. نذكر على سبيل المثال ياقوت (ت ٦٢٦هـ) في كتابه "معجم البلدان" وابن خلكان (ت

٦٨١هـ) في كتابه "وفيات الأعيان" والذهبي (ت ٧٤٨هـ) في أغلب كتبه وبوجه خاص في كتابه "سير أعلام النبلاء"؛ وكذلك ابن قاضي شهبة (ت ٨٥١هـ) في كتابه "طبقات الشافعية"؛ والزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) في كتابه "إنصاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين". أما الدراسات العربية الحديثة فكثيرة؛ وخلاصة ما ذهب إليه الدكتور عبد الأمير الأعم[٢٤] على أعمال مؤرخي الفلسفة فهؤلاء ينقسمون إلى ثلاثة أصناف:

١. صنف يرى أن الغزالي ممثل حقيقي للفلسفة، وله شأن فيها، لذلك يفردون له فصولاً يدرسونه بالمعايير نفسها التي يدرسون بها غيره من فلاسفة الإسلام.

٢. صنف آخر لا يرى الغزالي ممثلاً إلا للتيار الديني المضاد للفلسفة ومهما بلغ من شأن خصومته للفلاسفة فهؤلاء إنما يمرون منه مروراً عابراً لا يخلو من العداء له.

٣. وصنف آخر أغرب من الصنفين الأولين، أولئك الذين ينزهون الغزالي عن الفلسفة ويرفعونه إلى مصاف الأولياء، وحيثما بحثوا في دوره الفلسفي وجدوه فيلسوفا لا كالفلاسفة، فالفلسفة عند هؤلاء صدرت عن اليونان، والغزالي في كل ما ذهب إليه صدر عن الإسلام.

خلفية تاريخية عن عصر الغزالي:

عاصر الغزالي المرحلة الثانية من الخلافة العباسية التي كانت تعج بالاضطراب السياسي والانحطاط. أخذ السلطان العربي في بغداد في الانقراض، وقامت ثورة المسيحيين على المسلمين في المشرق. كما ازداد انقسام الناس إلى سنة وشيعة. وانتشرت الأشعرية والفلسفة المدرسية في الإسلام، حيث ساندها السلاجقة فيما ناهضتها المعتزلة المدعومة من الشيعة والبويهيين، أضف إلى ذلك نشوء فرقة الباطنية المدعومة من الفاطميين في مصر.

لقد كانت حينذاك السلطة الإسمية في بغداد للخليفة العباسي، حيث كان لا يملك من الحكم سوى ذكر اسمه على المنابر أثناء الخطبة. أما السلطة الفعلية فكانت بيد السلطان السلجوقي. ولقد عاصر الغزالي العديد من الخلفاء لكن الذين ناصروه هم كل من عضد الدولة بن أرسلان ٤٦٥هـ، وجلال الدين ملكشاه ٤٨٥هـ، وركن الدين ملكشاه الثاني ٤٨٥هـ. ومن بينهم كذلك الوزير نظام الملك حيث سيطر على زمام الأمور لمدة ربع قرن، حيث كان لهذا الوزير أثره الملموس في الحياة الثقافية، إذ أسّس المدارس النظامية وعين الغزالي، الذي كان زميلا له، رئيسا على المدرسة. وناصره أيضاً الوزير فخر الدولة بن نظام الملك حيث ألح على الغزالي للعودة إلى التدريس

في نظامية نيسابور.

ويبدو أن الغزال لم يحرك ساكنا ضد الهجمات الصليبية التي توالت على العالم الإسلامي واستولت على القدس وطرابلس. وهذا ما انتقده فيه البعض مثل زكي مبارك.[٢٥] ولقد شهد الغزالي في ذلك العصر انتشار خطر الباطنية الذين كان وراءهم الفاطميون، وقد تسببوا في قتل نظام الملك سنة ٤٨٥هـ واستولوا بعد قتله على قلعة أصبهان. وكانوا يهددون من لا يوافقهم بالقتل.

وفي الشأن الثقافي في خراسان حينذاك، سادت مذاهب مختلفة كالمعتزلة والشيعة وكانت الغلبة لأصحاب أبي حنيفة، إلا في كورة، والشاش، وإيلات، وطوس فسادت الشافعية، حيث نشأ الغزالي شافعياً. ولقد اشتهر هذا الإقليم بكثرة العلم واحترام الناس والحكام للعلماء. أما المذاهب التي سادت في بغداد فإن المقدسي[٢٦] يذكرها ضمن ذكر بلاد العراق عامة، فيقول: أن الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة وبخارية، وبالكوفة الشيعة إلا الكناسة فإنها سنة، وبالبصرة مجالس وعوام السالمية وهم قوم يدعون الكلام والزهد.. وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة وثمة حنابلة، وببغداد غالية يفرطون في حب معاوية ومشبهة وبربهارية.

من هو أبو حامد الغزالي؟:

هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، الفارسي الأصل، الفقيه الشافعي المذهب، المجتهد[٢٧]، الفيلسوف المتكلم المتصوف الفقيه المعروف بأبي حامد الغزالي. كان عنده ولد أسماه حامد توفى وهو صغير، فصار يلقب به. ونسبته "الغزالي" هناك من يردها إلى الرواية التي نسبت له والتي تفيد بأن الغزالي نسبة إلى قرية يقال لها غزالة. وهناك من رجّح نسبة الغزالي إلى والده الذي كان يغزل الصوف ليجلب لأولاده قوت يومهم.

ولد الغزالي بطوس إحدى مدن خراسان سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٩م). وفي هذه الفترة شهدت دولة السلاجقة في عهد ملك شاه نهضة ثقافية في العلوم الفقهية والرياضية والطبيعية وكان الإمام ممن أسهموا بقدر كبير في هذه النهضة.

لقد أوصى أبو محمد الغزالي في مرض موته بابنيه –وقد كان يتمنى أن يصبحا فقيهين– إلى صديق لتعليمهما الخط ويتكفل بهما. وبعد أن نفذ المال الذي تركه لهما، أوصاهما الوصي بالالتحاق بالمدرسة ليحصلا على قوتهما، وكان الغزالي يحكي هذا فيقول: "طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله".

مراحله التعليمية:

– **مرحلته التعليمية الأولى بطوس وجرجان:** كان الإمام الغزالي عنه شديد الذكاء، شديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصا على المعاني الدقيقة، جبل علم، مناظرا محجاجا. وكان إمام الحرمين يصف تلامذته، فيقول:" الغزالي بحر مغدق، وإلكيا أسد مغرّق، والخوافي نار تحرق"[٢٨] في عبارة تكاد تكون جامعة يصف السبكي الإمام الغزالي بهذه الخصائص التي أهلته ليكون مرجعا جامعا للعلوم.

لقد تلقى أبو حامد الغزالي (والذي يعتبر مدرسة في حد ذاته) بعض الفقه في صباه ببلده على الإمام أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي، ثم سافر إلى جرجان وهو دون العشرين وأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي ثم عاد إلى طوس. وفي طريق عودته حدثت له حادثة تركت أثرا بالغا في نفسه. إذ سرق له قطاع الطرق تعليقته (وهي عبارة عن مجموعة كتب بداخلها العلم الذي تلقاه بجرجان) فترجاهم أن يعيدوها له فاستهزأ به أحدهم مستنكرا عليه شدة اعتماده على تلك التعليقة بدل اعتماده على ذاكرته. فوعد نفسه منذ تلك اللحظة على أن يحفظ كل ما يتعلم. فعكف على تلك التعليقة حتى حفظها، والتزم الحفظ باقي فترة تعلمه.

– **مرحلته التعليمية الثانية بنيسابور:** تبدأ هنا مرحلة مهمة في حياة الغزالي الفكرية، إذ قاده فضوله العلمي إلى الالتحاق بإمام الحرمين الجويني بنيسابور وبملازمته له فبرع في المذهب والخلاف والجدل والأصول والمنطق وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد على مبطليهم، وإبطال دعاويهم، وصنف في كل فن من الفنون كتبا أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها.[٢٩] وفي هذه الفترة نشأت للغزالي شكوك في حقيقة العلم –وهذا ما سيتضح أكثر من خلال عرضنا لأفكاره– حيث تأثر الغزالي بأستاذه الجويني تأثراً كبيراً باعتبار الجويني إمام أئمة زمانه وكان أصولياً جريئا في نقده.

وبعد وفاة الجويني عام ١٠٨٥م تم تعيين نظام الملك وزيراً للسلطان ملك شاه السلجوقي الغزالي أستاذا بالمدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٨٤هـ (١٠٩١م) وفي هذه الفترة من حياته الفكرية انكب الغزالي على دراسة الفلسفة وكتب الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا، وألّف كتاباً بعنوان "مقاصد الفلاسفة" التزم فيه الحياد، وبعده مباشرة ألّف كتابه المشهور "تهافت الفلاسفة" الذي عين فيه ضلال الفلاسفة وأبدى شكوكه في قيمة الفلسفة وبراهينها المنطقية.

بقي الغزالي يدرس بالنظامية لمدة أربع سنوات مر خلالها بأزمات نفسية

سوف نتناولها بالدراسة والتحليل أثناء عرضنا لكتاب "المنقذ من الضلال". تلك الأزمات النفسية جعلته يغادر بغداد سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام. ودخل دمشق في مطلع ٤٨٩هـ وثمة خلاف حول مسألة سفره هذا. ثم اتجه نحو بيت المقدس ثم عاد إلى دمشق واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، ومكث بها بضع سنين ثم رحل إلى مصر وأقام مدة بالإسكندرية. ورجع الغزالي إلى بغداد لكنه استمر في اعتزاله التدريس إلى أن استدعاه الوزير خضر الملك سنة ٤٩٩هـ للتدريس في نظامية نيسابور، وبعد فشل هذا الوزير غادر الغزالي نيسابور إلى طوس حيث لازم بيته وانقطع إلى الوعظ والعبادة والتدريس، واستمر على ذلك إلى أن مات في جمادى الأولى سنة ٥٠٥هـ.

مؤلفـــاتـه:

اختلف الباحثون حول عدد المؤلفات التي خلفها الغزالي وراءه وصحت نسبتها إليه، فمنهم من ذهب إلى ستين كتاباً، حسب ما أورده السبكي في الطبقات. وعدَّ الزبيدي ما يقرب من ثمانين كتاباً ورسالة. وأورد الدكتور عبد الرحمن بدوي أنه ألّف تسع وستين كتاباً. فللإمام الغزالي مؤلفات في التصوف مثل "آداب الصوفية"، و"الأربعين في أصول الدين" و"إحياء علوم الدين" و"أيها الولد" و"الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة"، وغيرها. وكتب في العقائد منها "الاقتصاد في الاعتقاد" و"إلجام العوام في علم الكلام"، وغيرها. وكتب في الفقه والأصول، وأشهرها "المستصفى في علم الأصول" و"الوجيز في الفروع". وكتب في الفلسفة والمنطق مثل "تهافت الفلاسفة"، و"معيار العلم في المنطق"، وكتاب "مقاصد الفلاسفة"، وكتاب "المنقذ من الظلال". وسنحاول عرض تلك المؤلفات بحسب مراحل تطور فكره.

المبحث الثاني: دراسة وتحليل لكتاب المنقذ من الظلال

المقدمة:

تعرض الإمام الغزالي ﷺ في مقدمة كتابه "المنقذ من الضلال" إلى السبب الذي دفعه إلى كتابته والمتمثل في مجموعة أسئلة سألها أخ له في الدين، والتي شكّلت في حد ذاتها أسئلة البحث التي أجاب بواسطتها عن إشكالية الكتاب المتمثلة في "كيفية إنقاذ الله عز وجل إياه من الضلال مبرزاً ذلك من خلال إفصاحه عن الأحوال التي مر بها". وأسئلة البحث كالتالي:

١. ما هي غاية العلوم وأسرارها؟

٢. ماذا عن غائلة المذاهب وأغوارها؟

٣. ما المعاناة التي عاناها في سبيل وصوله إلى الحق من بين اضطراب الفرق، مع

اختلاف المناهج والطرق (مع تباين المسالك والطرق) وكيف أنه استطاع أن يتجاوز التقليد ويهتدي بشعاع الاستبصار؟

٤. ما هي الفائدة التي استفادها من علم الكلام؟

٥. ما كرهه من طرق أهل التعليم الذين يقتصرون في إدراك الحق على تقليد الإمام فحسب؟

٦. ما ازدراه من طرق أهل التفلسف؟

٧. ما ارتضاه أخيراً من طرق أهل التصوف؟

٨. ما انجلى له في تضاعيف تفتيشه عن أقاويل الخلق من آثار الحق؟

٩. وما الذي صرفه عن نشر العلم ببغداد مع كثرة الطلبة، وما الذي دعاه إلى استئنافه بنيسابور بعد طول المدة؟

وفي نهاية المقدمة أكد الغزالي أنه ما أراد أن يجيب السائل إلا لكونه التمس فيه صدق رغبة.

- عرض وتحليل لأفكار الكتاب:

يبدو أن الغزالي ﷺ قد التزم منذ البداية الإجابة على الأسئلة بحسب الترتيب الذي رسمه في المقدمة. ففي البداية أشار إلى أن الاختلاف السائد سواء بين الأديان والملل أو المذاهب الإسلامية بحرٌ عميق، غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الفرقة الناجية مصداقاً لقول المصطفى ﷺ. ثم عرض وصفاً سريعاً لحركته الجهادية في رحلته العلمية بمراحلها منذ ريعان شبابه وبالضبط قبل العشرين، وليس من المعقول أن يحدد العمر بالضبط فالفكرة لا يمكن حصر بدايتها باليوم والليلة، إلى ما يقارب الخمسين إي مدة ٣٥ عاماً تقريباً. ويصف أنه كان مطبوعاً على حب الإطلاع على كل صغيرة وكبيرة في العلم لا توقفه الإشكاليات المعقدة بل لا تمر عليه مسألة غامضة إلا توغل فيها، وما تمر عليه مشكلة إلا وباشرها بالبحث فيها وحلها، وما ترك ورطة إلا اقتحمها. وتفحص عقيدة كل فرقة، وكشف عن أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، ويضرب الأمثال. فهو لم يغادر فرقة الباطنية إلا وأحب أن يطلع على باطنيته ولا ظاهرياً إلا ويريد أن يعرف أو أن يعلم ما تحصل عليه ظاهريته، ولا ترك فلسفياً إلا ووقف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا وأحرص العثور على سر صوفيته، ولا متعبداً إلا ويترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلا إلا ويقدم وراءه ليكشف أسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وكل هذا نبع من رغبته القوية التي فطره الله عليها لدرك حقائق

الأمور. هذه الغريزة التي فطر عليها منذ صغره والتي دفعته إلى ترك التقليد والعقائد الموروثة منذ صباه، ودفعته فطرته إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية، حقيقة العقيدة التي ورثها عن والديه. فهذا الفضول جعله يتساءل في نفسه إذا كان يريد العلم بحقائق الأمور فلا بد له من طلب ماهية حقيقة العلم؟ فظهر له أن العلم اليقيني هو الذي يقطع مجال الشك أو الوهم. وأي علم لا يتصف بهذا الوصف فهو علم لا ثقة به.

– مداخل السفسطة وجحد العلوم:

أخذ الغزالي يصنف العلوم اليقينية والظنية، فرأى أن العلم الذي يمكن أن يتصف باليقين الذي لا يدع مجالاً للشك هو أن يتجلى فقط في الحسيات والضروريات، غير أن طول الشك أوصله إلى أنه لا يمكن التحقق من اليقين على المحسوسات لأن الحواس ليست معصومة؛ وأقواها البصر والتي تتوهم في مواضع كأن تنظر إلى الكوكب فتراه على غير حجمه الطبيعي، ثم أخذ شكه يطال الضروريات حتى أصيب بحالة نفسية مرضية ثم شفي ثم وصل إلى القول بيقينية الضروريات العقلية ولم يثبت له ذلك بالأدلة إنما ثبت بنور قذفه الله تعالى في الصدر، أي بالكشف الذي بحسب قوله لا يثبت بالأدلة المجردة. واستدل الغزالي بالآية الكريمة ليدل على قوله بصدق الكشف وأخذ يصف هذا النور بحسب الحديث الذي شرح به الآية الكريمة، كما يمكن أن ينبجس ذلك النور الإلهي أحياناً ويجب الترصد له. والنتيجة التي انتهى إليها في هذا المبحث هي أن تعلُم كمال الجد في الطلب يوصل إلى البحث عن ما لا يتسع للعقل الفصل فيه، فالأولويات لا يفتح فيها مجال البحث.

– رأيه في أصناف الطالبين:

وتكملة لما كان يتحدث عنه في تجسيد حقيقة العلم بأن العلم اليقيني ينحصر في الضروريات العقلية، حصر الغزالي أصناف الطالبين في أربع فرق:

المتكلمون: وهم يدعون أهل الرأي والنظر.

الباطنية: وهم يدّعون أنهم أصحاب التعليم المخصوصون بالاقتباس من الإمام القائم المعصوم.

الفلاسفة: وهم يدّعون أنهم أصحاب المنطق والبرهان.

الصوفية: وهم يدّعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة.

وخلص الغزالي إلى أن الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة. فراح يبحث في كل طريق من هذه الطرق الأربعة رافضاً التقليد والعودة إليه. وانطلق يبحث في هذه

الطرق الأربعة فأخذ يعرض باختصار شديد المقصود في علم الكلام وحاصله حتى يجيب على ما وعد به السائل ويستخلص له الفائدة التي استفادها من علم الكلام.

- رأيه في علم الكلام:

في حديثه عن مقصود علم الكلام، ذكر الغزالي أنه درسه دراسة دقيقة واطلع على كتب المحققين منهم، وصنف في هذا العلم ما أراد تصنيفه فوجد أن هذا العلم قد أدى مقصوده أي وافى المقصد الذي يريد أن يصل إليه هذا العلم ولم ينصرف عن مقصوده. غير أن الغزالي لم يجد فيه مقصوده. فراح يثني على هذا العلم بأن حدد له مقصوده في كلمتين وهما: حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها من تشويش أهل البدع. فأراد بهذه الجملة أن يحدد الوجهة الصحيحة لعلم الكلام، والإشادة بدوره الذي من المفترض أن يتأسس عليه. غير أن أتباعه عوضاً أن يبقوا عند هذا الهدف والمقصد الأساسي الذي نشأ لأجله علم الكلام، راحوا يبحثون في حقائق الأمور والجواهر والأغراض وأحكامها، فأخفقوا في الإجابة على الإشكاليات المطروحة فيها لأن ذلك ما لا يدخل في تخصصهم، وعليه لم يستطيعوا إقناع الغزالي وغيره باستثناء طائفة من المقلدة. ويرجع في الأخير ليقول أن ما لم يقنعه هو قد يقنع غيره، فالمهم أنه لم يجد عندهم دواء ينتفع به لقلقه الفكري.

- قوله في الفلسفة والفلاسفة:

أولا: انتقل الغزالي إلى الحديث عن الفلسفة كما وعد من قبل؛ وأراد في هذا المبحث أن يبين ما هو محمود وما هو مذموم فيها، وما هي المسائل التي يكفر فيها قائلها أو يردع. وأراد أن يبين كيف سرق الفلاسفة كلام أهل الحق ليصبغوا كلامهم بالصبغة الشرعية. وكيف نفرت الناس من ذلك الحق. وكيفية استخلاص حقائق الحق من الفريق من جهلة كلامهم. فوصل الغزالي إلى قناعة ذهبية هي أن من يريد أن ينتقد علما من العلوم يجب أن يخوض فيه ويتمكن منه حتى يضاهي في التمكن أفضل علماء ذلك العلم حتى ينجح في الوقوف عند الثغرات التي يمكن أن يثبت فسادها، وهذا ما تميز به الغزالي عن باقي العلماء إذ رفض مثلما فعل غيره الرد على مذهب من المذاهب دون أن يتبحر في علم ذلك المذهب. وعليه انكب على مطالعة كتب الفلاسفة دون الاستعانة بمدرس لمدة سنتين حتى وصل إلى أسباب مفاسد ذلك العلم. ثم بدأ الغزالي يصف أهل الفلسفة فذكر أنهم أصنافاً وعلومهم أقساماً، وعلى كثرة أصنافهم تلزمهم وصمة الكفر والإلحاد. وأشار إلى أن هناك فرقا بين القدماء منهم والأقدمين وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه.

ثانيا: بعد ذلك تعرض الغزالي لأصناف الفلاسفة وشمول سمة الكفر كافتهم. فقسَّم أهل الفلسفة إلى ثلاثة أصناف:

١- الدهريون، وهم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر وهؤلاء هم الزنادقة.

٢- الطبيعيون، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وآمنوا بالله وصفاته فهؤلاء أيضاً زنادقة.

٣- الإلهيون، وهم المتأخرون منهم، وهم ردوا على الدهريين والطبيعيين وكشفوا عن فضائحهم، تبرأ أرسطاطاليس من أفلاطون وسقراط. غير أنه لم يستطع النزوع عن رذائل كفرهم وعليه وجب تكفيرهم وتكفير شيعهم من المتفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهما، واتهمهم بعدم فهمهم للفلسفة مثلما فهمها أرسطاطاليس.

ثالثا: ثم انتقل الغزالي إلى عرض أقسام علومهم متعرضاً لكل قسم بمحاسنه ومساوئه. فأما **القسم الأول:** وهو علم الرياضيات فرأى عدم تعلقه بالأمور الدينية نفيا وإثباتاً وتولدت منه آفتان إحداهما أن انشغال بعض الفلاسفة بهذا العلم أورثهم الكفر والتعطيل وتهاون بالشرع. وهذا ينشر الكفر إذا ما قلدوه لأنه إذا عرف السامع جحدهم فنزل على أن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه فبدل أن تقودهم هذه العلوم إلى حسن الظن بالعلوم كلها حدث العكس. وعليه نهى الغزالي الخوض في هذا العلم، فقال بأن من يخوض فيه ينخلع من الدين. والآفة الثانية التي ترتبت عن انشغال الفلاسفة بهذا العلم أن بعض من ادعى نصرة الإسلام راح ينكر الانشغال بهذا العلم بحجة أن الشرع يخالف ما ذهبوا إليه فأنكر ابسط الأشياء مثل الكسوف والخسوف. وهذا ما جعل السامع يعتبر أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حباً وللإسلام بغضاً. فراح الغزالي يرد على من يدعي نصرة الإسلام بإنكار هذه العلوم بحجة الشرع، فأثبتت عدم وجود أدلة تثبت أو تنفي ذلك.

والقسم الثاني هو المنطقيات. مثل الأولى لا يتعلق شيء منها بالدين نفياً وإثباتاً، واعتبر هذا القسم من جنس ما نكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، ويختلفون معهم فقط في العبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات والآفة التي تولدت عن هذا العلم هي سوء استخدامهم لذلك العلم في المقاصد الدينية مما يورث الكفر.

والقسم الثالث: هو علم الطبيعيات. وهو كلما يتعلق بالطبيعة. وهذا ما لا ينكره الدين والذي يجب الاعتقاد به أن الطبيعة تسير بتدبير الخالق.

أما **القسم الرابع:** فهو الإلاهيات. ففي هذا القسم أكثر أغاليطهم إذا ما استطاع الفلاسفة أن يلتزموا البرهان على ما شرطوا في المنطق. ولذلك حصل بينهم خلاف

شديد. ولقد كفَّر الغزالي هؤلاء الفلاسفة بسبب ثلاثة مسائل غلطوا فيها؛ وبدعهم في سبعة عشر. ولقد فصل في هذه المسائل في كتابه "تهافت الفلاسفة". والمسائل الثلاثة هي في قولهم أن الأجساد لا تحشر؛ وأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات؛ وقولهم بقدم العالم وأزليته. وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات وهم يشتركون في ذلك مع المعتزلة وعليه لم يكفرهم فيها كما فعل في كتابه "فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة" والذي وضح فيه عدم التسرع في التكفير بمجرد مخالفة المذهب.

وأما **القسم الخامس:** فهو قسم السياسيات، وهو فهم كل المسائل المتعلقة بالأحكام السلطانية فمصدر الكتاب والسنة والأثر.

والقسم السادس: هو قسم الخلقية، وهي المسائل الروحية أو المتعلقة بتزكية النفس ومصدرها كلام الصوفية. ويشير الغزالي هنا إلى أن الفلاسفة مزجوا كلام الصوفية المحمود بكلامهم لترويج أباطيلهم. فتولد من هذا المزج آفتان: آفة في حق من أخذ بكلامهم؛ وآفة في حق من رد كلامهم. فأما الآفة الثانية فهي عظيمة، إذ يرى الغزالي أن رد كل كلامهم خطأ لأنه صدر منهم وأن كل فيه الحق، فالأولى أن يؤخذ الحق ويترك الباطل من كلامهم. غير أن الغزالي يرى أن زجر العامة عن مطالعة كتب أهل الضلال أولى من تركه لأنه كثر من يظن بنفسه القدرة على تمييز الحق من الباطل، وهذا ما قد يوقعهم في الآفة الثانية وهي آفة القبول إذ قد يستحسن القارئ كلامهم الممزوج من الحكم النبوية والكلمات الصوفية فيجره ذلك إلى قبول أباطيلهم مثل أباطيل إخوان الصفا.

فرقة الباطنية:

انتقل الغزالي بعد ذلك إلى الحديث عن مذهب التعليم وعائلته وهنا يشير إلى خطوة أخرى يذكر فيها أنه انتقل من دراسة علم الفلسفة ونقدها بإظهار مفاسدها لأنه لم يحقق غرضه في هذا العلم لعدم وجود أجوبة لمعضلات في ذهنه فانتقل إلى نقد الطريقة التعليمية وتمثلها مذهب الباطنية الذي شاعت أفكارهم وأصبحت تشكل خطراً على العامة أيضاً. فدفعه فضوله العلمي إلى الإطلاع على أفكارهم وشد عزمه أكثر لما طلب منه الملك تأليف كتاب للرد عليهم. وقد همَّ بذلك العلم بالمنهج الذي اعتاد العمل به من جمع وترتيب وتحقيق حتى أنكر عليه البعض باعتبار ذلك الترتيب قد يساهم في نشر مذهبهم أكثر مخافة أن تقرأ شبهاتهم ولا تقرأ ردوده. غير أن الغزالي رأي ضرورة إخراج ذلك العمل للعامة بسبب انتشار أفكار ذلك المذهب. فلو لم ينتشر ما كان داعي إلى جمعه وترتيبه ليشتهر وهنا نستخلص وجهة نظر خاصة للغزالي،

وهي أن الفكرة الخطيرة التي يطلع عليها أقلية يستحسن أن لا يكتب فيها بالشكل العلمي الدقيق حتى لا تشتهر، وإذا أردت أن تشتهر فكرة أعرضها بالشكل المنهجي السليم. ولقد قام الغزالي بالرد على مذهب الباطنيين في خمسة كتب هي "المستظهري" و"حجة الحق" و"مفصل الخلاف" و"الدرج" و"القسطاس المستقيم".

هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا أراد أحد أن يقبر فكرة فلا يطيل النزاع فيها مثلما حدث مع جيش الباطنية وأهل الحق إذ أشار الغزالي أن فكرة أولئك المبتدعة ضعيفة مكنّ لها أهل الحق بأن أطالوا النزاع معهم ومجادلتهم في كل ما نطقوا به مثلما في مسألة الحاجة إلى التعليم وإلى المعلم، وأنه لا يصلح أي معلم بل لا بد من معلم معصوم فأقر الغزالي دعوة الحاجة إلى المعلم. والمعلم المعصوم هو النبي ﷺ وليس المعلم المعصوم الغائب مثلما يدعي الباطنية. وأن مرجع المسلمين في المستجدات هو الاجتهاد عند عدم وجود نص.

ويذكر الغزالي أن دعاة الباطنية يعمدون إلى الاجتهاد في غيبة إمامهم أيضاً. وقال الباطنية أن الاجتهاد لا يصح في العقائد والخطأ فيها غير معذور، فذكر أن قواعد العقائد واردة في الكتاب والسنة، وما يختلف حوله يزنه المسلمون بالقسطاس المستقيم. غير أن الباطنية احتجوا عليه بأن خصومه يخالفونه في ذلك الميزان. فرد عليهم بأنهم لو فهموه لما خالفوه، لأنه استخرجه من القرآن ولا يخالف فيه أهل المنطق حسب الشروط التي وضعوها في المنطق، ولا يخالف فيه المتكلم لأنه موافق لما يذكره في أدلة النظريات وبه يعرف الحق في الكلاميات.

واحتج عليه الباطنية أيضاً أنه ما دام يملك مثل هذا الميزان لماذا لم يرفع الخلاف بين الخلق، فرد الغزالي أنهم لو أصغوا إليه لفعل ذلك، ثم يتسائل لما لم يرفع إمامهم الخلاف. وهكذا أخذ يرد الغزالي على الباطنية بالمنطق السليم والحجة ولم يرد عرض تفاصيل الرد عليهم لأنه سبق وأن رد عليهم في كتاب "المتظهرين" وكتاب "حجة الحق؛ رد عليهم وهو في بغداد، وفي كتاب "مفصل الخلاف" وهو جواب لكلام عرض عليه بهمدان، وفي كتاب "الدرج المرقوم بالجداول" وهو من ركيك كلامهم الذي عرض عليه بطوس، وفي كتاب "القسطاس المستقيم" وهو كتاب مستقل بنفسه بين فيه ميزان العلوم وإظهار الاستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به.

وهنا يكون الغزالي قد أفادنا بالمحطات التي التقى فيها بالباطنية والتي تدل على انتشار مذهبهم في كل من بغداد، وهمدان، وطوس؛ وأنه خلال هذه المرحلة ألَّف تلك الكتب للرد على الباطنية الذين استدرجوا العوام وضعفاء العقول.

- القول في طرق الصوفية:

يذكر الغزالي في هذا المبحث أنه لما فرغ من هذه العلوم السابق ذكرها أقبل بهمته على طريق الصوفية، وعلم أن طريقتهم تتم بعلم وعمل، وخلاصة علمهم كما أوردها الغزالي هي قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله عز وجل وتحليته بذكر الله عز وجل.

ويعترف الغزالي بكل وضوح أن طلب علم الصوفية كان أيسر من العمل بذلك العلم، ويذكر أنه انكب على مطالعة كتبهم كـ"قوت القلوب" لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، و"المفترقات المأثورة" للجنيد، وكتب الشبلي، وأبي يزيد البطامي، وغيرهم حتى اطلع على كنه مقاصدهم العلمية. وحاول أن يحمل من طريقهم بالتعلم والسماع، غير أنه وجد طرقاً أخرى غير التعلم للوصول إلى أخص خواصهم وهي تتم بالذوق والحال وتبدل الصفات. وضرب لنا مثلا في ذلك حول معرفة حقيقة الزهد وأن تكون حالك الزهد، فالفرق بينهما واضح. فعلم بذلك أن أهل التصوف هم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، فراح يسعى لمحاولة اكتساب تلك الأحوال بالذوق والسلوك بعد أن فرغ من تحصيل العلم الذي يمكن تحصيله.

وهنا تبدأ مرحلة جديدة في حياة الغزالي الفكرية؛ من مرحلة إشباع العقل إلى مرحلة تربية النفس. ولقد صرح في بداية كلامه كيف أن طلب العلم أسهل من تربية النفس أو مجاهدة النفس. ولقد انتهى الغزالي إلى قناعة خاصة بعد أن تعلم العلم الصوفي، وهي أنه لا يمكن تحقيق سعادة الآخرة إلا بالتقوى، ولا يتم ذلك إلا بتزكية النفس من العلائق. فعند مراجعة نفسه وجدها "على شفا جرف هار" لأنه جميع ما كان فيه من العلم والعمل رياء وتخييل لم يكن خالصاً لوجه الله تعالى، وعليه قرر الخروج من بغداد لمفارقة تلك الأحوال التي كان عليها. فبقي يصارع نفسه والشيطان لمدة ستة أشهر بين أن يخرج وأن يبقى فوجد نفسه مضطر للخروج وليس مخير بفضل الله الذي ابتلاه بعقله في اللسان تحولت من مرض نفسي إلى عضوي. ولجأ إلى الله بدعاء المضطر لعجزه عن قهر نفسه فاستجاب الله له فأخرج الدنيا من قلبه وجعلها في يده حتى يسهل له الإعراض عن الدنيا والأهل والولد. فأظهر عذر الخروج إلى مكة، ولم يبدي مقصده في الخروج إلى الشام عازماً على عدم العودة إلى بغداد، فترك بغداد وفراق ما كان معه من المال، ولم يدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال ثم دخل الشام واشتغل بتزكية نفسه لمدة سنتين واعتنى بتهذيب أخلاقه وتصفية قلبه لذكر الله عز وجل. ثم رحل إلى بيت المقدس وواصل مجاهدة نفسه. وبعدها سار إلى

الحجاز لأداء فريضة الحج للاستمداد من بركات مكة والمدينة، وبعدها يقول: "ثم جذبتني الهمم" ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتهيئة القلب للذكر.

ثم يقول: "وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعيشة تغيّر في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي إلا في أوقات متفرقة لكن مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني العوائق عنها وأعود إليها".

ودام على تلك الأحوال ما يقارب عشر سنين حيث انكشف له في هذه الخلوات أموراً كثيرة. وقبل عرض بعض تلك الأمور التي انكشفت له يجدر الإشارة هنا إلى بعض الملاحظات.

في البداية صرح الغزالي فيما سبق أثناء حديثه عن علم الكلام وأثره في محو ظلمات الحيرة عند البعض، وعدم إمكانية ذلك عند البعض الآخر؛ وختم كلامه بقوله "أن أدوية الشفاء مختلفة باختلاف الداء، فكم من دواء ينتفع به عليل، ويستضر به آخر". ولقد مرّ الغزالي بمرحلة صعبة مثلما أفصح لنا عن ذلك، فلقد وجد نفسه أنه أصيب بمرض العجب والرياء. وهذا الداء من أصعب ما يبتلى به من يشتهر بين الناس أو من رزقه الله موهبة العقل واللسان فيتقن الخطابة، فلكثرة ما يمدح ذلك الموهوب يقذف في قلبه الشيطان العجب بالنفس وحب الشهرة. فمن بين الحالات التي يستحوذ فيها الشيطان على الإنسان إذا أعجبته نفسه ونسي عيوبه. وعليه فإن الكلام الذي صرح به الغزالي عن الطريقة التي استطاع بها أن يُشفى من تلك الأمراض القلبية التي ثبتت في النفس لمدة طويلة، لم يكن من السهل عليه أن يزيلها إلا بالإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب. وليس هذا في نظري هو الأصل وإنما هي وصفة مؤقتة لعلاج حالة معينة، كمن يصاب بمرض خطير فيعطى علاج ذو مفعول قوي ولو اقتضى ذلك فقدان شعر جسمه فعلاج السرطان مثلا في منطقة معينة لا ينفع معه إلا قطع ذلك الجزء. فليس الأصل في الدين هو الإعراض عن كل ذلك بما فيه الأهل والولد. والإسلام دين معتدل لا إفراط ولا تفريط، ولا مجال لذكر واجب الأب تجاه أولاده، وواجب الزوج تجاه زوجته. واسترسل الغزالي في الحديث مثلما أشرت عندما أخذ يتحدث عن مهمات العيال، وضرورات المعيشة كيف أنها كانت تشوش صفوة الخلوة، فاعتبر أن هذه المسؤوليات هي عوائق.

قد يكون هذا الكلام صالحاً لعلاج حالة الإمام الغزالي غير أن المشكلة التي قد يقع فيها العوام أن هذا الدواء الذي اتخذه الغزالي لو سار عليه العوام (كما حدث

فعلا في المجتمع الإسلامي) لأضر بهم وما نفع، ولرأينا الناس تفر من المسؤوليات التي كلفهم بها الشارع ولاعتبر الأهل والولد مصدر فساد والاسترزاق أمراً يحول بين المرء والتقرب إلى الله؛ ولفهم العوام أنه لا يمكن أن تصل إلى درجة التقوى وأنت تؤدي ما عليك من واجبات كإعطاء كل ذي حق حقه، والسعي إلى طلب الرزق. لقد رأى الغزالي من الواجب زجر العوام عن قراءة كتب الفلاسفة حتى لا تفسد عقولهم، والأمر هذا ينطبق على الكلام الذي قاله عن العلاج الذي وصفه لنفسه فإذا قرأت العامة العلاج الذي أخذ به الغزالي وأخذت به لنفسها لهلكت ولأفسدت عقولهم وسلوكاتهم.

إن المراحل التي مرّ بها الغزالي قبل الإطلاع على كتب المتصوفة كانت تفتقد إلى الجانب الروحي فقد أمضى مدة أطول مع العلوم العقلية المجردة كعلم الكلام والفلسفة والباطنية، وعيبها الأساسي أنها علوم تقتل الجانب الروحي أي الرباني في الإنسان. فصلته بها جعلته يشبع الجانب العقلي، وهذا عيب الطريقة التي تدرس بها العلوم الشرعية في هذا العصر أيضاً. فلقد أشار الغزالي بنفسه كيف أنهم لجأوا في الأول إلى المدرسة لطلب القوت قبل العلم، ووصف لنا كيف أن العلوم الشرعية كانت مصدراً لتحقيق الجاه والمال.

ونرجع إلى ما انكشف للإمام الغزالي في الطرق الصوفية، حيث ذكر أنه علم اليقين وأن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق؛ بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. فكلام الغزالي وجيه عن عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقعين على أسرار الشرع من العلماء. فالعقلاء لا معنى لعقلهم إذا كانوا يشتكون من الفراغ الروحي ولم يعملوا لسعادة الآخرة؛ والحكماء لا معنى لحكمتهم إذا كانوا يتخبطون في فراغ روحي. والأمر نفسه ينطبق على علماء الشريعة الذين تحدث عنهم. غير أنه يمكن أن يرد بديلا لو جمع الفقيه أو عالم الشريعة بين العلم الشرعي والزهد الصوفي. فالنفس تحتاج إلى التزكية بين الحين والأخرى وأن تخلو مع الله بين الفينة والأخرى كما ورد في قوله تعالى: ﴿وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٣٠]، وورد في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو "إن الإيمان ليخَلقٌ في جوف أحدكم كما يخلق

الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم"[٣١] هذا التصوف الذي أثنى عليه القرآن وأثنت عليه السنة النبوية المطهرة. فقوة الابتلاء تكمن في خوض غمار الحياة والمحافظة على تقوى الله، فالمؤمن في جهاد مع النفس إلى أن يفارق الحياة، ودوام الحال على نفس درجة الإيمان لدى غير الأنبياء من المحال، وإلا فلا معنى للابتلاء بالشهوات ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا﴾.[٣٢] فالتكليفات الشرعية تقتضي الأخذ بما أحل الله وترك ما حرمه الله، فلا معنى للتكليف إذا اعتزل المرء عزلة مطلقة للدنيا ومشاغلها ورفع عن كاهلة مشقة التكليف.

وبعد أن عرض المقصد الذي يرمي إليه المتصوف، الذي يعتبر مقصداً من أشرف المقاصد مثلما ذكر الغزالي، الذي آخره الفناء في الله. وأخذ يعرض ما يمكن أن ينكشف للمتصوف من رؤية ملائكة وأرواح الأنبياء وغير ذلك. ومنهم من تصل بهم الدرجة إلى القول بالحلول من شدة القرب إلى الله، والاتحاد معه وقد خطأهم الغزالي في ذلك. وهذا في نظرنا كتحصيل حاصل لأي غلو في الدين بأنواعه والذي نص عليه القرآن والسنة النبوية الشريفة.

فها هي أم المؤمنين عائشة ﵂ عندما سألت عن صلاة الضحى، قالت "إن النبي كان يحب أن تؤتى أعمالا كثيرة لكنه لم يكن يدم عليها مخافة أن يتخذها الصحابة سنة، لأنه كان يفضل التيسير في العبادة لتحقيق التوازن والاعتدال في المسلم. فعن عروة عن عائشة قالت: "ما رأيت رسول الله ﷺ سبّح سُبحة الضحى وإني لأسبحها[٣٣]. وروي عنه أيضاً عن عائشة قالت: "ما سبّح رسول الله ﷺ سبحة الضحى قطّ وإني لأسبّحها، وإن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم[٣٤]. وفي رواية لأحمد "ترك كثيراً من العمل خشية أن يستن الناس به فيفرض عليهم"[٣٥]، وله أيضاً "... وكان يحب ما خفّ على الناس من الفرائض"[٣٦]. فقد أكدت عائشة ﵂ أن الرسول ﷺ لم يكن يفعل ذلك حتى لا يظن الناس أنها سنة فيتبعونها، فتفرض عليهم. وأشارت إلى أن الرسول ﷺ كان يترك أعمالاً كان يحب أن يعملها حتى لا تتحول إلى فرض. فمداومة عائشة على تلك العبادة لا تعتبر بدعة في الدين ولا مخالفة للمصطفى، وإنما اجتهاداً في العبادة، ولا تعني أنها تؤتي منها أكثر من الرسول ﷺ لأنه كان يراعي قدرة أمته على تطبيق ما يشرع لهم، فيداوم على ما يطيقونه من ا لأعمال حتى يتخذونها سنة تتبع. ولقد أجاب الغزالي عن تلك الأخطاء التي وقع فيها غلاة التصوف في كتابه "المقصد الأسمى".

وقد اعتبر الغزالي حدوث الكرامات للأنبياء مسألة بديهية، وكان ذلك أول

حال رسول الله وهو في غار حراء، فكان العرب يقولون إن محمداً يعشق ربه. كما أشار الغزالي إلى أن هذه الحالة يمكن أن يتحققها من يسلك سبيلها بالذوق أو بالتجربة والتسامح وبالصحبة. واعتبر الغزالي الصوفية هم من قال عنهم رسول الله "هم القوم لا يشقى بهم جليسهم"، وقد فصل في هذا الموضوع في كتابه "إحياء علوم الدين" ومعارضي هؤلاء هم قوم جهال في نظر الغزالي. وبان للإمام الغزالي من خلال ممارسة طريقة أهل التصوف حقيقة النبوة وخاصيتها فأفرد لها مبحثا.

- القول في حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق إليها:

ابتدأ الغزالي كلامه في هذا الموضع بقوله أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ثم أخذ يصف دور الحواس في تطوير ملكات العقل ليميز بين الجائز والمستحيل. غير أنه أضاف إلى تلك الأطوار طور آخر وراء العقل يبصر بها الغيب، مفيداً بأن "النبوة عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل. والشك في النبوة إما أن يقع في إمكانها أو في وجودها ووقوعها أو في حصولها لشخص معين. ودليل إمكانها وجودها، ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور أن تنال بالعقل كعلم الطب وغيره. وأما ما عداها من خواص النبوة فإنما يدركه بالذوق من سلك طريق التصوف. وأما التذوق كالمشاهدة والأخذ باليد، فلا يوجد إلا في طريق الصوفية.

- القول في سبب معاودة نشر العلم بعد الإعراض عنه:

لقد ختم الغزالي كتابه بفصل عن سبب معاودة نشر العلم بعد الإعراض عنه، والذي سبق وأن وعد السائل بالجواب عنه، فلماذا يا ترى استأنف الغزالي التدريس بعد أن انقطع عنه. يذكر الغزالي أنه بعد أن قضى ما يقارب عشر سنين في العزلة والخلوة، بان له في ذلك على الضرورة من أسباب لا تحصى مرة بالذوق، ومرة بالعلم وبالبرهان، ومرة بالقبول الإيماني. وهنا يطلعنا الغزالي على طرق تحصيل حقائق الأمور أو العلم، فقد يتحصل بالذوق أو بالبرهان. وفي مواضع يتحصل عليه بالقبول الإيماني بان له أن الإنسان خلق من بدن وقلب. ويقصد بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله تعالى، وأن كلاهما البدن والقلب يسعدان بالصحة والسلامة ويستشفيان بالمرض وقد يهلكان إن لم يتدارك المرض بالأدوية، غير أن تلك الأدوية يجب أخذها عن الأطباء وهذا عين العقل، إذ وكذلك أدوية العبادات بحدودها وعقاقيرها المحدودة من جهة الأنبياء يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا ذلك بنور النبوة. وحتى تركيب تلك الأدوية يجب تقليد الأنبياء فيها، كتقليد الأطباء لذلك،

فتركيب الدواء باجتهاد العقل قد يؤدي إلى نتائج سيئة. والشيء نفسه في العبادات التي يجب ممارستها بالطريقة التي علمها لنا الأنبياء لا مجال لاجتهاد العقل فيها.

وخلاصة قوله أن الأنبياء هم أطباء أمراض القلوب؛ ودور العقل هو التصديق وتفهم ما يلقيه الطبيب إليه. وهذه الحقيقة الأولى التي وصل إليها بالمشاهدة في مدة الخلوة والعزلة. والمسألة الثانية عن أسباب فتور الخلق، وضعف إيمانهم بها والتي أرجعها إلى أربعة أسباب:

١. سبب من الخائضين في علم الفلسفة.
٢. سبب من الخائضين في طريق التصوف.
٣. سبب من الخائضين المنتسبين إلى دعوى التعليم.
٤. سبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس.

فحاول الغزالي استقراء سبب الفتور باستبيان ذلك من الناس بالأسئلة معتمداً على العينات الأربعة السابقة. وخلاصة سؤاله لهم كانت: إذا كنت تؤمن بالآخرة فلماذا لا تستعد لها بالطاعات.

فردَّ عليه الأول بأن دليل عدم وجوب المحافظة على الطاعات، هو انعدام ذلك عند العلماء، وأسرد له الأمثلة عن مشاهير الخلق كيف ينتهون عما نهى عنه الشرع. ومن عينات أهل التصوف، كان الرد الأول أنه بلغ من التصوف مبلغا يفر به عن العبادة. وآخر يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة وهؤلاء هم الذين ظلوا عن طريق التصوف؛ وقائل آخر لقي أهل التعليم؛ وقائل آخر يرجع حاله إلى ما استخلصه من الفلسفة حيث اعتبر التكليف للعوام، وأن الحكمة للحكماء وهم مستغنون عن التقليد. ثم قال "هذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي". ثم أخذ يصف أحوالهم مع الشريعة، فمنهم من لا يقر بصحة النبوة ويصلي باسم العادة أو باسم الرياضة، ومنهم من يقر بصحة الشريعة والنبوة ويشرب الخمر بحجة أنه يشربه لغرض مخالف لعلة التحريم. وقد انخدع بهؤلاء جماعة.

ويذكر الغزالي أنه لما انتشر ضعف الإيمان للأسباب التي ذكرها عزم على كشف هذه الشبه وترك العزلة. غير أنه تردد في الأول بحجة أن هذا العمل لا يمكن القيام به دون مساعدة سلطان متدين قاهر. فقدر الله عز وجل أن سخر أبو المظفر فخر الملك علي بن نظام الملك، إذ أمره بالنهوض إلى نيسابور لتدارك هذه الفترة. وهنا نصل إلى مرحلة مهمة من تطور فكر الغزالي. فبعد أن مكث في العزلة لمدة

إحدى عشرة سنة قرر استئناف العمل لمحاربة الفساد بعد أن انتفى سبب رخصة الاستمرار في العزلة، ثم قال "فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عزّ النفس وصونها عن أذى الخلق، ثم استدل بالآيات التي تفيد بأن المؤمنين يفتنون ليمتحن إيمانهم.

ثم استشار جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فأشاروا عليه بترك العزلة والخروج من الزاوية. وتوارت إلى جانب ذلك منامات الصالحين تشهد بحسن خروجه وأن ذلك جاء مصداقاً لحديث رسول الله بخروج مجدد على رأس كل مائة سنة.

فانطلق إلى نيسابور سنة ٤٩٩هـ وكان قد فارق بغداد عام ٤٨٨هـ فدامت مدة عزلته ١١ سنة كما ذكر هو ذلك. ثم أكد على أن خروجه من بغداد وعودته إليها في المدتين المذكورتين كان بقدر الله عز وجل، وأشار إلى أن مقصد نشره العلم في الأول كان لكسب الجاه، وأما هذه المرة فجاء ليدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه، فمراده في هذه العودة أن يصلحه الله عز وجل ويصلح به غيره. وبعد تبرير سبب خروجه، رجع ليتحدث عن طرق علاج أسباب ضعف الإيمان. أما علاج من ادعوا الحيدة بما سمعوه من أهل التعليم وهم الباطنية التي تحدث عنهم من قبل، فالعلاج يكمن في الرجوع إلى ما كتبه في كتاب "القسطاس المستقيم". فالغزالي في مرحلة نضجه الفكري هذه لم يتراجع عما كتب وهذا ما لاحظناه منذ البداية، فهو يرجعنا كم من مرة إلى الكتب التي كتبها وما اعتبر تلك المرحلة مضيعة للوقت بل على العكس يجب الرجوع إلى تلك الكتب لكشف الحق من الباطل. وأما ما توهمه أهل الإباحة فقد حصر شبههم في سبعة أنواع، وكشفها في كتابه "كيمياء السعادة".

وأما من أفسد إيمانه بطريقة الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة، فقد بين الغزالي حقيقتها ووجودها بالضرورة بدليل وجود علم خواص الأدوية والنجوم وغيرها. وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة فهو على التحقيق كافر بالنبوة لأن الإيمان بالنبوة يقتضي الإقرار بإثبات طور وراء العقل، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة وهذا ما فصل فيه من قبل. ولقد استمر في إعطاء الحجج التي تثبت أنه يجوز أن يكون في الأوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتحقيقها ما لا يدرك بالحكمة العقلية، ولا يتصور إلا بعين النبوة مثل أعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج. وخلاصة قوله هنا أن منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ والدليل على ذلك يتجلى بالتجربة وتأمل القرآن ومطالعة الأخبار.

أما السبب الرابع وهو ضعف الإيمان بسبب سوء سيرة العلماء فأورد الغزالي

ثلاثة أمور يداوى بها هذا المرض، أحدهما يجب الاعتراف بأن للعلم هفوات كثيرة وهفوته كهفوة غيره وتغلبه كما تغلب غيره. وثانيها يجب أن يعلم العامي أن العالم اتخذ علمه فخرا لفقه في الآخرة وقد يكون علمه زيادة حجة أو درجة له، أما العامي فإن ترك العمل وهو لا يملك العلم فيهلك بسوء علمه. وثالثها أن العالم الحقيقي لا يقترف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصراً إلى العلم الحقيقي ما يعمل به. والعلم ليس كل ما يشتغل به الناس فلا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله، وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاءً.

المبحث الثالث: مراحل تطور فكر الغزالي

إن الخصائص الشخصية التي تميز بها الغزالي ساهمت بشكل كبير في توجيه تطور حركته الفكرية، فحب الوصول إلى الحقيقة كان شيئاً غريزياً أو فطرياً فيه صاحبته هذه الخاصية طوال حياته. فالفضول العلمي كان عنده شديد جداً مما أكسبه عقلية منظمة تشكلت نتيجة المطالعات المكثفة إذ بعد مراحله التعليمية الثلاث أي التي تلقاها بطوس عن طريق أستاذه أحمد بن محمد الرازكاني ثم أبو القاسم الإسماعيلي ثم المرحلة الثالثة التي اكتسب فيها عقلية الأصولي عند ملازمته الإمام الجويني انطلق بعد ذلك بالمفاتيح الفكرية التي اكتسبها إلى دراسة العلوم الأخرى بنفسه.

وصف الغزالي المنهج الذي صاحبه في طلبه لحقائق الأمور وبالتالي لحقيقة العلم لمدة خمس وثلاثين سنة أي ما بين الخامسة عشرة والخمسين من عمره تقريباً في تقديمه لكتابه "المنقذ من الضلال" إذ يذكر أن دافع البحث عنده كان بما تميز به من الخصائص التي أشرنا إليها من قبل والتي وصفها إياه بها السبكي أو كما عبَّر عنها هو في كتابه بأنه كان مطبوعاً على حب الإطلاع. ومطالعته هذه كانت قائمة على مبادئ على رأسها مبدأ الشك؛ ثم التزم خطوات أخرى:

- قراءة الجزئيات والكليات.
- التوغل في الإشكاليات المعقدة.
- البحث عن الحلول للإشكاليات الغامضة.
- اقتحام الورطات.
- تفحص عقيدة كل مذهب أو فرقة.
- الكشف عن أسرار مذهب كل طائفة ليميز بين محق ومبطل، ومسن ومبتدع، وهذا ما طبقه فعلا في كل مذهب وفرقة أو طائفة.

- مرحلة القلق الفكري الأولي عند الغزالي:

في هذه المرحلة أخذ الغزالي يبحث عن العلوم التي يتوفر فيها الوصف الذي أعطاه للعلم الحقيقي والذي هو في نظره يقطع مجال الشك. فبلغ قلقه الفكري أن نفى وجود علم يقيني، ثم انتهى بعد أن مرَّ بحالة نفسية مرضية دامت مدة شهرين إلى أن الضروريات العقلية يقينية. ولم يثبت له ذلك بالأدلة إنما بالكشف وهو نور يقذفه الله في القلب.

- مرحلة القلق الفكري الثانية عند الغزالي (٤٧٨-٤٨٨):

تُعدّ هذه المرحلة مرحلة التقلب بين المذاهب. ففيها بدأ الغزالي بالبحث عن مقصوده في كل صنف من أصناف الطالبين فحصر الحق بالضرورة في إحدى تلك الفرق الأربعة وراح يبحث في كل واحدة أيهم على الحق بأدوات الاجتهاد لا بالتقليد. اطلع على مذهب المتكلمين فوجد أن الأوائل كانوا يهدفون إلى الدفاع عن السنة وأتباعهم انحرفوا عن الهدف الأصلي ودخلوا في البحث فيما لا يسمن ولا يغني من جوع. غير أنه أقر حقيقة مهمة وهي أن مباحثهم دواء قد يصلح لغيره غير أنه هو لم يجد دواءه لقلقه الفكري. ثم انكب على دراسة مذهب الفلاسفة، حيث أقر فيه المنهج العلمي الصحيح الذي يجب الأخذ به قبل نقد أي علم، وهذا ما التزم به في دراسته للفلسفة. لذلك كتب في الأول مؤلفه "مقاصد الفلاسفة" ثم تلاه بكتاب ينقدهم فيه وهو "تهافت الفلاسفة". وفي حديثه عن الفلسفة يعترف وهو في هذه المرحلة من عمره، أي ما يقارب الخمسين عاماً، أن فيها ما هو محمود وما هو مذموم، ولم يرم بها كلية؛ يعني لم يتراجع عن ما كتبه في الفترة التي انكب فيها على دراسة الفلسفة. ثم شد عزمه على الغوص في أسرار المذهب الباطني، ليس بدافع البحث عن الحقيقة فحسب، بل بسبب خطورة أفكارهم على العامة.

- مرحلة القلق الفكرية الثالثة عند الغزالي والانتهاء عند طرق الصوفية (٤٨٨-٤٩٩)

وصل الغزالي إلى المرحلة التي رجّح فيها المذهب الذي يراه على الحق والذي بحث عنه طويلا وهو في تقلب بين المذاهب السالف ذكرها. وهذا المذهب متمثل في الطرق الصوفية. وعن هذه المرحلة أدلى الغزالي باعترافات فريدة من نوعها.

لم يسبق أن عرض الغزالي في المراحل السابقة فشله أو عجزه أو عدم قدرته على فهم أو حل مشكلة فكرية واجهته، ففي وصفه الأول للمنهج الذي سار عليه، لم يفصح عن أي فشل، بل على العكس لم تقف في طريقه أية عرقلة لأنه كان يتعامل

مع العقل. أما هذه المرة فيعترف الغزالي أن هذه المرحلة كانت أصعب مرحلة مرّ بها في حياته ابتداءً بالعمل بعلم الصوفية. فطلبه لعلمهم كان سهلا لكن عمله بذلك العلم صعب عليه لأن الأمر الأول متعلق بالعقل أما الثاني فهو تربية النفس والتي مقرها القلب. فراح يحاول اكتساب تلك الأحوال بتذوق تلك المعرفة الحقيقية التي تكسبه تقوى الله والتي يحقق بها سعادة الآخرة. وهنا بدأ الغزلي الحرب مع نفسه التي وجدها على شفا حفرة من جهنم واعترف بأن الفترة التي قضاها كان فيها قلبه مريضاً بمرض العجب والرياء فقرر أن يتخذ علاجاً صارماً. فهذا المرض عشش لمدة طويلة وليس من السهل معالجته وهو من أخطر الأمراض التي قد تصيب كل من يشتهر بين الناس. ولقد اعترف فيها بعجزه عن إقناع نفسه بالخروج والفرار إلى الله لتزكية نفسه بعيداً عن العوامل المثيرة لذلك المرض. وأمام هذا الفشل تتدخل رحمة الخالق ليبتليه بمرض يضطره إلى الخروج والفرار بنفسه إلى دمشق سنة ٤٨٨هـ لتزكية وتربية نفسه لمدة سنتين. وبقي على هذه الحال، أي في المجاهدة، عندما سافر إلى بيت المقدس ثم إلى الحجاز. ثم رجع إلى وطنه حيث استمر في عزلته وبقي في جهاد مع نفسه مع شواغل الدنيا يصارع العوائق ليخلو بنفسه في أوقات متفرقة مع الله عز وجل.

غير أن الملاحظة التي يجدر الإشارة إليها أنه في أثناء تناوله لفرقة الصوفية لم يطبق عليها نفس المنهج الذي طبقه على الفرق الثلاثة الأخرى. إذ نجده كان كلما يعرض قسماً من أقسام تلك العلوم يذكر الآفات المترتبة من الخوض في تلك العلوم سواء على الخاصة أو العوام. وعليه كان يخلص إلى ضرورة زجر العامة عن الخوض في مثل تلك العلوم، ونجده ثابتا على موقفه من إلجام العوام عن علم الكلام، مثلا، إلى آخر أيام حياته[٣٧] دون أن ينفي محاسن ذلك العلم. غير أنه مر بشكل سريع عند حديثه عن ما يترتب من الغلو في التصوف وأشار إلى الرجوع إلى كتابه "المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى"[٣٨] ويبدو أنه ألّف الكتاب بعد تأليفه كتاب إحياء علوم الدين لأنه يشير في كتاب "المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى" إلى كتاب الإحياء. وألفه أيضا قبل تأليفه لكتاب المنقذ لأنه يشير إلى المقصد الأسني فيه كما أشرنا. وعليه فإن الإمام الغزالي لم يتعرض إلى الآفات التي يمكن أن تحدث لأوساط العوام من جراء ممارستهم للعلاج الذي اختاره الغزالي لنفسه طوال الاعتزال والخلوة.

وقد أشار الغزالي في هذه المرحلة إلى كتابه إحياء علوم الدين الذي أشاد فيه بالصوفية واعتبره كتابا بسيطا كما ذكر في مقدمة كتابه المستصفى، حيث قال:

"ولأجل شرف علم الفقه وسببه وفر الله دواعي الخلق على طلبه وكان العلماء به أرفع العلماء مكانا وأجلهم شأنا وأكثرهم أتباعا وأعوانا فتقاضاني في عنفوان شبابي اختصاص هذا العلم بفوائد الدين والدنيا وثواب الآخرة والأولى أن أصرف إليه من مهلة العمر صدرا وأن أخص به من متنفس الحياة قدرا فصنفت كتبا كثيرة في فروع الفقه وأصوله ثم أقبلت بعده على علم طريق الآخرة ومعرفة أسرار الدين الباطنة فصنفت فيه كتبا بسيطة ككتاب إحياء علوم الدين..."[٣٩].

ويجدر ذكر أهم الكتب التي ألفها في هذه المرحلة وهي[٤٠]:

- إحياء علوم الدين ٤٨٩ – ٤٩٥هـ
- كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب.
- المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى، بين ٤٩٠ – ٤٩٥هـ
- جواهر القران ٤٩٠ – ٤٩٨هـ
- القسطاس المستقيم ٤٩٧ هـ
- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ٤٩٧هـ
- كيمياء السعادة، بين ٤٩٠ – ٤٩٥هـ

– مرحلة الهدوء والاستقرار الفكري عند الغزالي. (٤٩٩ – ٥٠٥ هـ)

يشير الغزالي في هذه الفترة إلى النتائج التي استقرت لديه وارتاحت إليها نفسه بعد أن قضى عشر سنين في العزلة والخلوة. ومن بين ما وصل إليه أن طرق اكتساب المعرفة قد تكون بالذوق أو بالعلم البرهاني، أو بالقبول الإيماني. وخلص إلى أن الإنسان بدن وقلب، وأن الأنبياء هم أطباء القلوب مثلما للبدن أطباء. وواجب المرضى تقليد الطبيب بالعمل بالأدوية. فدور العقل أمام أطباء القلوب هو التصديق والتسليم والتطبيق. ونشير بهذا الصدد إلى أن الغزالي كثيراً ما كان يعقد مقارنة بين أثر الدواء في علاج البدن وأثر الأدوية الروحية في علاج القلب. غير أن الدواء له قوانين معينة يجب أن تتبع وإلاّ أدى إلى نتائج غير سليمة.

– إن الأدوية تعطى بدرجات حسب حالة المرض، فبعض الأمراض البسيطة تحتاج إلى الأدوية البسيطة. والأمراض الخطيرة تحتاج إلى أدوية قوية. والغزالي في مراتب العلماء والعلاج الذي اتخذه لنفسه قوي لأن مرض العجب والرياء كاد أن يودي به إلى النار والعياذ بالله.

– إن ما ينفع من دواء لشخص ما ليس بالضرورة أن ينفع شخصاً آخر، والعكس صحيح. وقد يكون بدن إنسان لديه حساسية من بعض الأدوية فلا ينفعه الدواء، بل قد يضره. فعلى سبيل المثال، الإطالة المفرطة في الصلاة قد تنفع أناساً كثر لكنها قد

تضر من يشتكي من مرض قدميه.

– وللأدوية أيضا آثاراً جانبية تظهر عند البعض ولا تظهر عند البعض الآخر. ففي فترة علاج الإمام الغزالي أشار إلى أنه كاد أن يكون الباعث على العزلة الكسل والاستراحة لولا تدخل الخالق عز وجل أن سخّر له الحاكم ليأمره بالنهوض للإصلاح. فمن الآثار الجانبية للعزلة والخلوة المفرطة الركون إلى الكسل والراحة. وإذا سلم منها هو كعالم لا يسلم منها عوام الناس.

وخلص الغزالي أيضا إلى الأسباب التي أدت إلى فتور الخلق، وضعف إيمانهم. هذا ما دفعه إلى الخروج – بأمر من السلطان– من عزلته التي قضى فيها إحدى عشرة سنة. ليبدأ مرحلة جديدة في حياته ولو أنها كانت قصيرة لتبدأ من عام ٤٩٩هـ وتنتهي بوفاته ﷺ عام ٥٠٥هـ، حيث حارب فيها الفساد ونشر فيها روح تزكية النفس، وألّف فيها المنقذ من الظلال ما بين سنتي ٥٠١–٥٠٢هـ. وألّف في عجائب الخواص، وغاية الغور، وألّف المستصفى من علم الأصول سنة ٥٠٣هـ في نيسابور كما يروي ابن الأثير، وألّف الإملاء على الأحياء في نيسابور عام ٥٠٣هـ، والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، وإلجام العوام عن علم الكلام ما بين ٥٠٤–٥٠٥هـ، وأخيرا كتاب منهاج العابدين، الذي اختلف حول نسبته إليه.[٤١]

الفصل الثالث

مقارنة بين كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين وكتاب المنقذ من الضلال للإمام أبي حامد الغزالي

المبحث الأول: السيرة الذاتية

١– من كتب عنهما؟:

رأينا أن من بين أهم الأعمال التي يرجع إليها عن السيرة الذاتية للقديس أوغسطين (٣٥٤م– ٤٣٠م) هي Basic Writings of Saint Augustine للمؤلف Whitney J. Oates في جزأين، عام ١٩٤٨م، طبعا إلى جانب كتابه الاعترافات وغيرها. إلا إن أول من بدأ يكتب في سيرة أبي حامد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، (١٠٥٩– ١١١٤م) هو عبد الغافر الفارسي (ت ٥٢٩) و كان معاصرا للغزالي. أما القديس أوغسطين فقد كُتب عنه متأخراً عن عصره. وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن الغزالي اكتسب مكانة علمية ودينية أوسع من المكانة التي اكتسبها أوغسطين. أضف إلى قيمة ومصداقية المعلومات التي تصلنا عن سيرتهما الذاتية فشتان بين الأحكام التي تصلنا عن من عاصر الغزالي وبين آراء من ألف عن أوغسطين بعد ١٧ قرنا.

٢- الخلفية التاريخية لعصريهما:

يبدو أن كليهما عاصر ظروفا سياسية مضطربة، لكنهما يختلفان في أن أوغسطين لم يكن على اتصال بالسلطة لعدم وجود تلك العلاقة بين السلطة السياسية والفرق الدينية مثلما كانت عليه في عصر الغزالي باعتبار أن الدين كان وسيلة هامة يستخدمها الحكام في تحريك العوام، وهذا ما جعلهم يقربون العلماء إليهم ويشرفون على نشر المذهب الذي يناسبهم ويحاربون الفرق المخالفة. ورأينا كيف كان للوزير نظام الملك أثر في الحياة الثقافية للبلاد حيث عيّن الغزالي على مدرسة النظامية. أما عن الوضع الثقافي فيبدو أن كليهما عاصر صراعات مذهبية مختلفة في زمانهما.

لقد رأينا أن كليهما عايش فترة سقوط وانحطاط ورأينا أن أوغسطين ألّف كتابه مدينة الله لمواساة الناس ولكي يصغّر في قلوبهم مدينة الإنسان -لأن القوط دمروا مدينة روما- ويكبّر في عيونهم مدينة الله التي لا يمكن أن يسلبها الإنسان. بينما الغزالي لم يرد موقفه من الحملات الصليبية. ويبدو أن رد الفعل هذا تولد نتيجة اختيارهما للمنهج الصوفي الذي يطفئ في النفس روح التحدي ورد العدوان ومقاومة الاستعمار باعتبار أن ذلك قدر من الله بما كسبت أيدي الناس.

مراحلهما التعليمية:

مرحلة التعليم الأول والثانية لأوغسطين كانت أدبية، خاصة وأن علم البلاغة كان "يمتدح الكذب والزور في كلمات لطيفة كيسة"[٤٢]. بينما مراحل تعليم أبي حامد الغزالي فكانت دينية علمية.

محتوى الكتابين:

ألّف أوغسطين كتابه في مرحلة التصوف إن صح التعبير وكذلك الغزالي. غير أن أوغسطين تخلى عن المنهجية العلمية الدقيقة فلم يضع مقدمة علمية تصف لنا الإشكالية والأسئلة التي يريد أن يجيب عنها في كتابه. لذلك نجد أن من كتبوا عنه يجتهدون في محاولة إبراز الهدف والإشكالية التي يصبو إليها أوغسطين من كتابه، حيث يغلب على الكتاب الطابع الأدبي والروحي في الوقت نفسه. بينما العلاج الصوفي الذي سلكه الإمام الغزالي لم يفقده المنهج العلمي في تأليف كتابه المنقذ من الضلال. فيما أن كتاب الاعترافات للقديس أوغسطين يغلب عليه طابع المناجاة الممزوج بالاعترافات ككيف أن الله أعطاه القوة للتغلب على إغراءات الجسد وأنقذه من الضلال؛ بينما أن كتاب الغزالي نجده عبارة عن اعترافات حول كيف أنقده الله من الضلال، وأجوبة على الأسئلة التي طرحت عليه.

مراحل تطور فكري كل من القديس أوغسطين والإمام الغزالي:

إن السؤال الجوهري المشترك بين القديس أوغسطين والإمام الغزالي يكمن في أين هي الحقيقة؟ أي أن البحث عن الحقيقة هو الذي وجّه خط تطور مراحلهما الفكرية، حيث أنهما اعتمدا في البحث عنها عبر منهج الشك. غير أن الحقيقة التي كان يبحث عنها أوغسطين هي الحقيقة التي تجلب له السعادة النفسية والتي تخرجه من التخبط في الملذات الجسدية؛ بينما نجد أن الحقيقة التي كان ينشدها الغزالي لم تكن مرتبطة بالمشاكل الجنسية بسبب تربيته الدينية. فالحقيقة التي كان يبحث عنها أبي حامد الغزالي هي حقيقة العلم الذي يقطع عنه الشك، والذي به يفهم حق الفهم دينه الإسلام ويدرك ما يمكن أن يفيده من العلوم الدخيلة على الإسلام، ويرزقه السعادة الأبدية. فيما أن الحقيقة التي كان يبحث عنها أوغسطين هي الحقيقة التي تعينه على اعتناق الدين الذي يجلب له السعادة الأبدية. وكلاهما أراد أن يحل مشكلة الجمع بين العقل والوحي.

لاحظنا من خلال عرض وتحليل الكتابين أن كلاً من أوغسطين والغزالي انتقد الفرق المعاصرة لهما. فأوغسطين اعتنق العقيدة المانوية تسع سنوات ثم تأثر بالفلسفة وبخاصة الأفلاطونية، ثم اعتنق المسيحية وأخذ يهاجم المانويين، والدوناتيين، والبيلوجيسيين بالمناظرات والتأليف. وفي الجانب الآخر، رأينا كيف أن الغزالي انتقد علم الكلام والفلسفة والمذاهب الباطنية ومدح الفرق الصوفية.

إن المنهج الذي اعتمده الغزالي في نقد الفرق كان علمياً أكثر، فهو اعتكف على دراسة الفلسفة–مثلا– بنفسه لمدة ثلاث سنوات قبل أن يرد على الفلاسفة. أما أوغسطين فقد ركّز على ذكر كتاب سيزيروس Ciceros إلى جانب قراءات أخرى.

وأخيراً فإن كليهما اشتكى من قلق واضطراب نفسي صاحبهما خلال تلك المراحل التي ذكرناها آنفاً وجعلهما يختاران حياة الزهد، أو ما يصطلح عليه بالتصوف عند المسلمين. غير أن مصدر قلق أوغسطين يختلف عن الغزالي. حيث يشتركان في مرض حب الشهرة والجاه، وهذا حال من يشتهر بين الناس، بينما أنهما يختلفان في أن أوغسطين كان يعاني من مرض نفسي آخر لم يعاني منه الغزالي بسبب حصانته الدينية التي جعلته يتزوج زواجا شرعياً، أما أوغسطين فكان يتخبط في الشهوات والملذات الجنسية التي لم يستطع أن يتغلب عليها إلا بعد أن اعتنق الديانة المسيحية واختار طريق الرهبنة.

إن علاج أوغسطين كان أشد لأنه كان يعاني من مرض الكبرياء ومرض

تلبية الرغبات الجنسية غير الشرعية. لذلك لم يرجع إلى الحياة الطبيعية وبقي يعيش حياة التطرف في الزهد إلى درجة الرهبنة. بينما نجد أن أبي حامد الغزالي احتاج إلى علاج دام مدة ثلاث سنوات ليمتلك بعدها الوقاية من السقوط في ذلك المرض مرة أخرى. فهو بعد أن عاد إلى نيسابور خرج من عزلته بفضل الله وبقي في مجاهدة مع نفسه يصارع الحياة التي هي دار ابتلاء حتى وفاته.

فكلاهما جذب الناس إلى اختيار طريق التصوف في الحياة، حيث أن الغزالي بقي يدرّس طلبة العلم وبنى لنفسه زاوية يخلو فيها إلى ربه. وبقي أوغسطين يدعو الناس إلى التمسك بمدينة الله الخالدة والزهد في الدنيا.

نتائج البحث

خلاصة القول مما سبق ومن خلال المقارنة التي عقدناها في بحثنا بين أوغسطين والغزالي نجد أن هناك نقاط تلاقي واختلاف بينهما:

- لقد اعتمد القديس أوغسطين وأبو حامد الغزالي في البحث عن الحقيقة على منهج الشك.
- فيما يخص المنهج الذي اعتمداه كلاهما في نقد الفرق المعاصرة لهما كان فيه الغزالي علميا أكثر.
- إن السؤال الجوهري المشترك بين القديس أوغسطين والإمام الغزالي يُعدّ من البديهيات الفطرية التي أودعها االله عز وجل في مخلوقه الإنسان والتي تدفعه إلى البحث عن الحقيقة التي تجلب له الاستقرار النفسي بغض النظر عن الدين الذي ينتمي إليه.
- إن الحقيقة التي كان يبحث عنها القديس أوغسطين هي الحقيقة التي تجلب له السعادة النفسية والتي تخلصه من سجن الشهوات الجسدية.
- الحقيقة التي كان ينشدها الغزالي لم يكن باعثها التحرر من قيود الشهوات الجنسية لأن تربيته الدينية حمته من الوقوع في ذلك، بل كان باعثها الأساسي التحرر من أمراض قلبية مثل حب الشهرة والجاه –كما حصل لأوغسطين أيضا– وذلك من أجل البحث عن الحقيقة.
- لقد اشتكى كلاهما من قلق واضطراب نفسي صاحبهما خلال مراحل حياتيهما وجعلهما يختاران حياة الزهد أو ما يعرف بالتصوف عند المسلمين.
- إن مصدر قلق أوغسطين يختلف عن الغزالي، حيث يشتركان في مرض حب الشهرة والجاه، ويختلفان في أن أوغسطين كان يعاني من مرض نفسي آخر وهو التخبط في الشهوات الجنسية التي لم يستطع أن يتغلب عليها إلا بعد أن اعتنق الديانة

المسيحية واختار طريق الرهبنة.

- لقد كان تداوي أو علاج أوغسطين لنفسه شديدا لأنه كان يعاني من مرض الكبرياء ومرض حب الملذات الجنسية غير الشرعية. لذلك لم يرجع إلى الحياة الطبيعية وبقي يعيش حياة التطرف في الزهد إلى درجة الرهبنة ونشر الدعوة.

- لقد احتاج الغزالي إلى علاج استمر ثلاث سنوات ليمتلك بعد ذلك الوقاية من السقوط في ذلك المرض مرة أخرى. فهو لما رجع إلى نيسابور عندها خرج من عزلته بفضل الله وبقي في مجاهدة مع نفسه.

- لقد قام كلاهما بدعوة الناس إلى اختيار طريق الزهد في الدنيا وهو ما يعرف بالتصوف في الإسلام.

هوامش البحث:

[١] عن السيرة الذاتية لأُوغسطين انظر:
Saint Augustine Confessions. Translation with an Introduction by R. S. Pine. Coffin Penguin Books, ١٩٦١; Saint Augustine the Confessions, the City of God, on Cristian Doctrine. Encyclopedia Britannica, The university of Chicago second edition, ١٩٩٠ p ١–٤. Jams Hastings, MA. D, with the assistance of John A. Sebie, Encyclopedia of Religion and Ethics, London: Tend clark Edinburgh, ١٩٠٩, vol. ٢, pp ٢١٩); Gale Research, Encyclopedia of World Biography, ٢nd Edition, ١٩٩٨, vol. ١, pp ٣٦٧–٣٧٠; Mircea Eliade, The Encyclopedia of Religion, New York: Macmillan Publishing Company, ١٩٨٧, vol. ١, pp ٥٢٠–٥٢٦); Edward Graig, Routledge Encyclopedia of Philosophy, Routledge, ١٩٩٨, vol. ١, pp. ٥٤١–٥٥٩).

[٢] Encyclopedia of World Biography, pp. ٣٧٠.

[٣] Routledge Encyclopedia of Philosophy, pp. ٥٥٨–٥٥٩.

[٤] Encyclopedia of World Biography, pp. ٣٦٨

[٥] بتصرف: توما الأكويني ترجمة حسن حنفي نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. أوغسطين أنسيلم –(القاهرة: دار الكتب الجامعية، ط١، ١٩٦٩) ص٢– ٥بتصرف.

[٦] بتصرف: نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. أوغسطين أنسيلم –(القاهرة: دار الكتب الجامعية، ط١، ١٩٦٩) ص٥–٩ بتصرف.

[٧] بتصرف: Saint Augustine Confessions. Translation with an Introduction by R. S. Pine. Coffin Penguin Books, ١٩٦١; saint Augustine the Confessions, the City of God, on Cristian Doctrine. Encyclopedia Britannica. The university of Chicago second edition ١٩٩٠ p ١–٤. Jams Hastings, MA. D. with the assistance of John A. Sebie. Encyclopedia of Religion and Ethics (London: Tend Clark Edinburgh, ١٩٠٩, vol. ٢, pp ٢١٩); Gale Research. Encyclopedia of World Biography (٢nd Edition, ١٩٩٨, vol. ١, pp ٣٦٧–٣٧٠); Mircea Eliade. The Encyclopedia of Religion (New York: Macmillan Publishing Company, ١٩٨٧, vol. ١, pp ٥٢٠–٥٢٦); Edward Graig. Routledge Encyclopedia of Philosophy (Routledge, ١٩٩٨, vol. ١, pp. ٥٤١–٥٥٩).

[٨] البلاجيوسية نسبة إلى بيلاجيوس (٣٦٠-٤٢٠م) الراهب البريطاني الذي أنكر الخطيئة الأصلية وقال بحرية الإرادة.

[٩] بتصرف: Saint Augustine Confessions. Translation with an Introduction by R. S. Pine. Coffin Penguin Books, ١٩٦١; Saint Augustine the Confessions, the City of God, on Cristian Doctrine. Encyclopedia Britannica. The university of Chicago second edition ١٩٩٠ p ١-٤. Jams Hastings, MA. D. with the assistance of John A. Sebie. Encyclopedia of Religion and Ethics (London: Tend Clark Edinburgh, ١٩٠٩, vol. ٢, pp ٢١٩); Gale Research. Encyclopedia of World Biography (٢nd Edition, ١٩٩٨, vol. ١, pp ٣٦٧-٣٧٠); Mircea Eliade. The Encyclopedia of Religion (New York: Macmillan Publishing Company, ١٩٨٧, vol. ١, pp ٥٢٠-٥٢٦); Edward Graig. Routledge Encyclopedia of Philosophy (Routledge, ١٩٩٨, vol. ١, pp. ٥٤١-٥٥٩).

[١٠] Encyclopedia of Religion and Ethics, pp. ٢١٩

[١١] المرجع السابق، ص٥٤٣.

[١٢] Saint Augustine Confessions. The Abstract.

[١٣] وول ديورانت: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، ج١، مجلد ٦، ص١٤٥-١٤٦، نقلا عن مجلة الرسالة، المرجع السابق، ص٤٣.

[١٤] جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص٣٤٦-٣٤٧.

[١٥] هنري توماس، أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة متري أمين، القاهرة: دار النهضة العربية، ط١٩٦٤م، ص١٧٧-١٧٨.

[١٦] مجلة الرسالة، السنة الثانية رمضان ١٤٢٠هـ/ديسمبر ١٩٩٩م، بحث الطالب كامل الشرباتي، ص٤٥ نقلا عن موسوعة الفلسفة ومنجد ببلوغرافيا المسيحية.

[١٧] Encyclopedia of World Bibliography, pp. ٣٦٨/ وجاء أيظا في كتاب نماذج من الفلسفة المسيحية أن المنوين كانوا يدعون أنهم أصحاب مذهب عقلي محض لتفسير العالم وتبرير وجود الشر وللوصول إلى الإنسان عن طريق العقل المحض أنظر ص٩.

[١٨] معجم الفلاسفة، جورج طرابيش، بيروت: دار الطليعة، ط١، ١٩٨٧م، ص١٠٨-١٠٩.

[١٩] قال الدكتور عرفان عبد الحميد "الهاتف الغيبي يكون عادة الدافع والسبب إلى التحول في النفس والانتقال من حياة إلى أخرى نقيضة لها هكذا عند الصوفية جميعا" مقابلة مع الدكتور ﷾ يوم ١٠/٦/ ٢٠٠٢.

[٢٠] انظر: أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ص١٧٨.

[٢١] المرجع السابق، ص١٧٧.

[٢٢] الرسالة، المرجع السابق، ص٥٣-٥٤، ونقلا عن موسوعة الفلسفة وكتاب قصة الحضارة.

[٢٣] انظر سيرة الغزالي في المصادر التالية: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال، تحقيق عبد المنعم العالي، دمشق: الحكمة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م؛ المصدر نفسه، تحقيق د. سميح دغين، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٣م؛ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، مصر: دار المعارف،ط ١٩٥٥م، ص٣٧-٥١؛ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، معيار العلم في المنطق، شرحه أحمد شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٨-٢٢؛ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد

الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، إلجام العوام عن علم الكلام، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٣م، ص٧–١٨؛ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، الاقتصاد في الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص٥–٨؛ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٣–٥؛ القاضي أبي بكر بن العربي. العواصم والقواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، تحقيق محب الدين الخطيب، ص١٩–٢٢؛ ياقوت بن عبد الله الحمزي أبو عبد الله ت ٦٢٦، معجم البلدان، بيروت: دار الفكر، ج٧ ص٥٠. الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م)، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ج١٩، ص٣٢٢–٣٤٦؛ تاج الدين أبي نصر عبد الوهاّبين على بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧هـ/ ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، ج٦/ من ص١٩١–٢٢٧. الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٩هـ/١٩٩٢م، ج٤، ص١٤٣–١٤٦؛ د. سليمان دنيا. الحقيقة في نظر الغزالي، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ص١٥–٧٥ وص٢١، نقلا عن الزبيدي في كتابه إتحاف السادة المتقين، بشرح إحياء علوم الدين؛ د. عبد الأمير الأعم. الفيلسوف الغزالي، بيروت: دار الأندلس، ط٢، ١٩٨١م، ص١١–٤٧؛ عبد الحميد خطاب. الغزالي بين الدين والفلسفة، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط١٩٨٦م، ص٢١–٧٩؛ د. عبد الكريم عثمان. سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، دمشق: دار الفكر، ص٥–٤٠؛ أحمد شمس الدين. الغزالي حياته، أثره، فلسفته، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص٥–٤٠؛ د. عبد الدايم أبو العطاء البقري الأنصاري. اعترافات الغزالي أو كيف أرَّخ الغزالي نفسه، مصر: مكتبة أنجلو المصرية، ١٩٨٥م، ص٣–٥.

[٢٤] الفيلسوف الغزالي، إعادة تقويم لمنحنى تطوره الروحي، من ص١٨–٢٣ بتصرف.

[٢٥] سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه

[٢٦] الغزالي بين الدين والفلسفة، ص٣٣.

[٢٧] عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل (ت ٩١١) تفسير الاجتهاد. تحقيق د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية: دار الدعوة ط١ / ١٤٠٣هـ، ج١/ص٦.

[٢٨] طبقات الشافعية الكبرى. ج٦، ص١٩٦.

[٢٩] أنظر: الحقيقة في نظر الغزالي، ص٢١ نقلا عن الزبيدي في كتابه إتحاف السادة المتقين، بشرح إحياء علوم الدين.

[٣٠] سورة الذاريات، الآية:٥٥

[٣١] صحيح الجامع، ح ١٥٩٠، صححه الألباني.

[٣٢] سورة الكهف، الآية: ٧

[٣٣] رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب من لم يصل الضحى ورآه واسعاً، ح ١١٠٦؛ ورواه أحمد في مسنده بنفس اللفظ، كتاب باقي مسند الأنصار، ح ٢٤٢٧٢، ٢٤٥٧٧، ٢٤٦٢٩، وبلفظ آخر في نفس الكتاب، ح ٢٣٤١٢، ٢٨١٨، شركة صخر لبرامج الحاسب، CD–ROM موسوعة الحديث النبوي،

[٣٤] رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، ح ١١٧١؛ وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، ح ١١٠١؛ وأحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، ٢٤٢٧٩؛ ومالك في كتاب النداء للصلاة، ح ٣٢٤، شركة صخر لبرامج الحاسب، CD-ROM موسوعة الحديث النبوي.

[٣٥] رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، ح ٢٤٦٨٥ وهو صحيح. شركة صخر لبرامج الحاسب، CD-ROM موسوعة الحديث النبوي.

[٣٦] المرجع السابق، رواه أحمد في كتاب باقي مسند الأنصار، ح ٢٣٤٢٠، ٢٤١٨٣، وهي صحيحة، شركة صخر لبرامج الحاسب، CD-ROM موسوعة الحديث النبوي،

[٣٧] إلجام العوام عن علم الكلام. ص٣٣.

[٣٨] أبي حامد الغزالي. المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى.

[٣٩] أبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥)، المستصفى. ت محمد عبد السلام عبد الشافي، بيروت: دار الكتب العلمية ط١ ،١٤١٣، ص٤

[٤٠] سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه. ص٢٠٢.

[٤١] سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه، ص٢٠٥.

[٤٢] أعلام الفلاسفة كيف نراهم، ص١٧٤.

مصادر ومراجع البحث:

أ) باللغة العربية

١.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). الاقتصاد في الاعتقاد (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)

٢.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). إلجام العوام عن علم الكلام (بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٣م)

٣.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). تهافت الفلاسفة. تحقيق سليمان دنيا (مصر: دار المعارف، ط١٩٥٥م)

٤.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)

٥.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). معيار العلم في المنطق. شرحه أحمد شمس الدين (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٠هـ/١٩٩٠م)

٦.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال. تحقيق عبد المنعم العالي (دمشق: الحكمة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)

٧.أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (٤٥٠ – ٥٠٥هـ). المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال، تحقيق د. سميح دغين (بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٣م)

٨.أحمد شمس الدين. الغزالي حياته، أثره، فلسفته (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م)

٩.الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/١٣٧٤م). سير أعلام النبلاء. تحقيق شعيب الأرنؤوط (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١٤٠٥هـ/١٩٨٤م)

١٠. الإمام شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١٤١٩هـ/١٩٩٢م)
١١. تاج الدين أبي نصر عبد الوهّابين على بن عبد الكافي السبكي (٧٢٧هـ/ ٧٧١هـ) طبقات الشافعية الكبرى
١٢. توما الأكويني ترجمة حسن حنفي. نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط. أوغسطين أنسيلم – (القاهرة: دار الكتب الجامعية، ط١، ١٩٦٩)
١٣. جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م)
١٤. د. سليمان دنيا. الحقيقة في نظر الغزالي (القاهرة: دار المعارف، ط٤)
١٥. د. عبد الأمير الأعم. الفيلسوف الغزالي (بيروت: دار الأندلس، ط٢، ١٩٨١م)
١٦. د. عبد الأمير الأعم. الفيلسوف الغزالي. إعادة تقويم لمنحنى تطوره الروحي (بيروت: دار الأندلس، لبنان، ط٢، ١٩٨١م)
١٧. د. عبد الدايم أبو العطاء البقري الأنصاري. اعترافات الغزالي أو كيف أرَّخ الغزالي نفسه (مصر: مكتبة أنجلو المصرية، ١٩٨٥م)
١٨. عبد الحميد خطاب. الغزالي بين الدين والفلسفة (الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، ط١٩٨٦م)
١٩. عبد الكريم عثمان. سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه (دمشق: دار الفكر)
٢٠. القاضي أبي بكر بن العربي. العواصم والقواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ. تحقيق محب الدين الخطيب
٢١. مجلة الرسالة، السنة الثانية رمضان ١٤٢٠هـ/ديسمبر ١٩٩٩م، بحث الطالب كامل الشرباتي.
٢٢. معجم الفلاسفة، جورج طرابيش (بيروت: دار الطليعة، ط١، ١٩٨٧م)
٢٣. هنري توماس، أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ترجمة متري أمين (القاهرة: دار النهضة العربية، ط١٩٦٤م)
٢٤. وول ديورانت. قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران، ج١، مجلد ٦، نقلا عن مجلة الرسالة
٢٥. ياقوت بن عبد الله الحمزي أبو عبد الله ت ٦٢٦. معجم البلدان (بيروت: دار الفكر)

ب) باللغة الإنجليزية

١-Edward Graig. Routledge Encyclopedia of Philosophy (Routledge, ١٩٩٨)
٢-Gale Research. Encyclopedia of World Biography (٢nd Edition, ١٩٩٨)
٣-Jams Hastings, MA. D. with the assistance of John A. Sebie. Encyclopedia of Religion and Ethics (London: Tend Clark Edinburgh, ١٩٠٩)
٤-Mircea Eliade. The Encyclopedia of Religion (New York: Macmillan Publishing Company, ١٩٨٧)
٥-Robert Audi. Cambridge Dictionary of philosophy. Second edition ١٩٩٩.
٦-Saint Augustine Confessions. Translation with an Introduction by R. S. Pine. Coffin Penguin Books.
٧-Saint Augustine the Confessions, the City of God, on Cristian Doctrine. Encyclopedia Britannica. The university of Chicago second edition ١٩٩٠